سلمى الـيـالي

رقعة الشّطرنج

تقديم الأستاذ حمادي القسطي

رواية

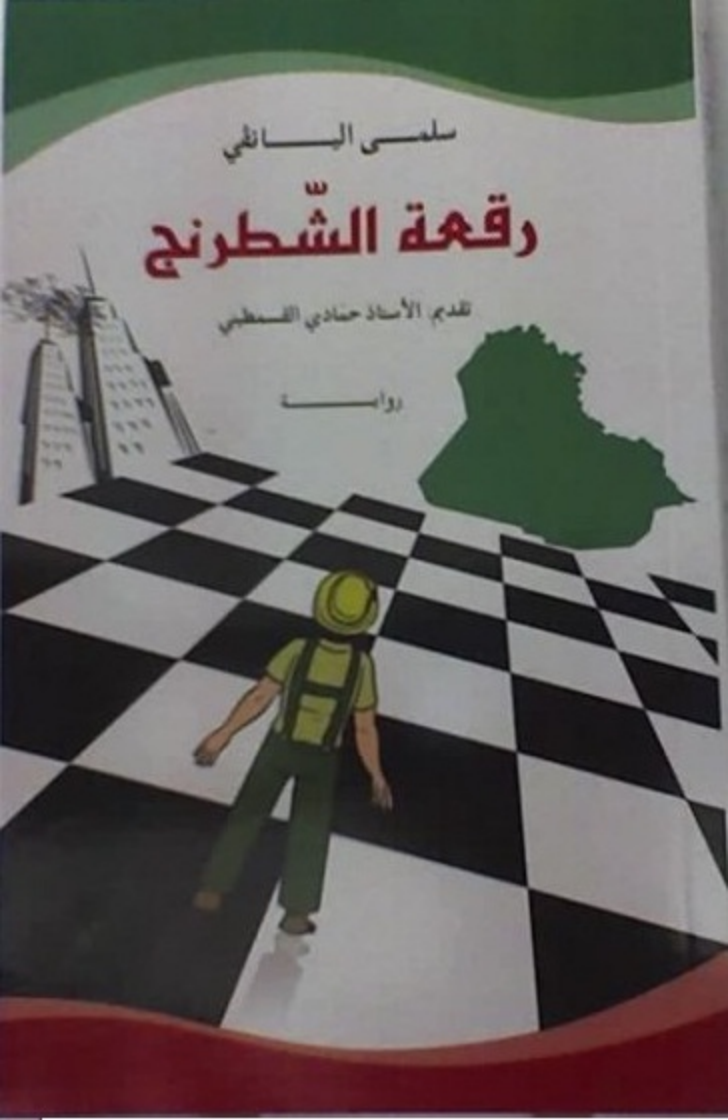

سلمى اليانقي

رقعة الشّطرنج

تقديم: الأستاذ حمّادي القسمطيني

رواية

الطبعة الأولى: سنة 2007

شخصيّات وأحداث هذه الرّواية لا تمتّ للواقع بصلة..
وأيّ تشابه في الأسماء سيكون من قبيل الصّدفة المحضة..

الإهداء

إلى كلّ من طمح وسعى جاهدا من أجل تحقيق هذا الطّموح.

إلى كلّ من لم يشكّ يوما في أنّ الشّمس كلّ صباح من الشّرق تلوح.

إلى كلّ من فهم أنّ عطر الأمل من بين صفحات هذا الكتاب يفوح.

التّقــديم

الأستاذ: حمّادي القسمطيني

لمّا عدّ جبرا إبراهيم جبرا الرّواية ديوان الغرب الحديث، لم يكن ليبني موقفا من فراغ بل كان فيه منشدا إلى قدرة هكذا جنس أدبيّ على التقاط تفاصيل الواقع القطريّ والقوميّ والعالميّ، وخاصّة تلك الأحداث ذات الصّليل الدّوليّ ذي الانعكاس المباشر على واقعنا بمختلف إحداثيّاته وميكانيزماته. فقارئ المدوّنة الرّوائيّة العربيّة لابدّ أنّه عاثر على انزراع الكيان الصّهيونيّ في عمق الشّرق الأوسط وتداعيّات انغراسه على الشّعب الفلسطينيّ بكلّ شرائحه وكلّ ردهات المقاومة فيه، والعناوين أكثر من أن تحدّ والقارئ عينه يستجلي تبعات ثورة الضّبّاط الأحرار في مصر سنة 1952 على محيط بلاد النّيل ودور هذه الثّورة في تفعيل المدّ القوميّ من المحيط إلى الخليج، وأمثلة المتون السّرديّة الحاملة لوجيب ذاك الحدث أكثر من أن نحصرها.

يبقى أن نشير إلى أنّ القدرة على استثمار أحداث مماثلة والخروج بها من حيّز التّاريخ إلى حيّز الإنشاء لا يمكن أن يستقيم إلاّ لمن رسخت قدمه في حياض الرّواية كعبد الرّحمان منيف والرّبيعي وجبرا والطّيّب صالح ومحفوظ والغيطاني والقعيد... أمّا أن نُلفي كاتبة في السّنة الثّانية إبداع تتفاعل بالشّكل الّذي يكشف عنه نصّها "رقعة الشّطرنج" فذاك لا يتحقّق إلاّ عربون اقتدار ووعد صريح بميلاد كاتبة، على صغر سنّها وحجمها، كبيرة في امتلاك ناصية الخطاب الرّوائيّ من جهة، وعنوان اختراع التّاريخ وتطويعه إلى الإبداع كما أسلفنا وكما دلّلت ذات "سراب وضباب".

لقد كان لضرب البرجين في الحادي عشر من سبتمبر الوقع المدوّي في ذات سلمى الإنسانة وقعه في سلمى الكاتبة،

وقع عجّل من اتّخاذها إياه بؤرة الأحداث في روايتها، فالكارثة الأمريكيّة –وهو عمل كارثيّ بقطع النّظر عن موقفنا من الحدث في ذاته- غدت مفصلا بين عوالم متعدّدة بعضها ذاتيّ وبعضها الآخر موضوعيّ. صحيح أن الحادي عشر من سبتمبر جسّد زمن الرّواية الخارجيّ، ولكنّه ألقى بضلاله على العوالم الآنفة الذّكر.

فالذّاتي منها يمكن أن تتّضح معالمه بالتّركيز على البطل "عبد الكريم"، بطل سارعت السّاردة بإخراج أبيه حامل اسمه من مسرح الأحداث وبتزويج أخته وبموت أخيه وبإبعاد خاليه خدمة لاستقطابيّته ومركزيّته. وعبد الكريم هو البطل الذّي لم يسكنه البتّة هجيس التّجذّر في واقعه العراقيّ وطفق عنقه مشرئبّا إلى الآخر/الغرب الّذي ظلّ يتهيّأ له مخلّصا من براثن الفقر ومنتشلا من البطالة والخصاصة ومؤمّنا للثّراء السّريع راميا عرض الحائط بكلّ التّضحيات الّتي تجشّمتها والدته بُعيد ترمّلها ومتجاهلا زوجة هجر مخدعها بُعيد فترة وجيزة من الاقتران التّكتيكيّ تاركا ابنه يتخبّط في أحشائها فيولد دون أن يراه. ومع حلوله بأرض "العمّ سام" اصطدم بانّ كلّ ما لقيه من حظوة عند فرانكو مشغّله وصهره فيما بعد لم يكن إلاّ من قبيل ما يسم الأمريكيين في تعاملهم مع الآخر من براغماتيّة ونفعيّة مقيتة بعيدا عن كلّ أدبيّات التّعامل الإنسانيّ وما كان ليكتشف ذلك لولا ما طرأ على مشغّله من تغيّرات راديكاليّة في نظرته للجالية العربيّة بُعيد سقوط البرجين وما عقبه من سقوط التّمثال في ساحة بغداد. هذه التّحوّلات في مصير عبد الكريم وفّقت الكاتبة في صياغتها بوهجها، إن باقتضابها الأحداث وفق قاعدتي الحذف والاختزال وإن بما أجرته على لسانه من حوارات مركّزة فضلا عمّا أبدته من قدرة متميّزة على استبطان صراعاته الدّاخليّة وهو في حجرته الجحر قُبيل ترحيله، قدرة شفّت عن استقوائها بتكتيكات الرّواية التّيّاريّة، وهي طرائق معدودة من قبل مستجدّات

الرّواية الحديثة منذ أن التحمت الفنون بالعلوم الإنسانيّة فاستفادت من منجزات التّحليل النّفسيّ على اختلاف مدارسه.

أمّا إذا رمنا البحث في ما هو موضوعيّ، فيكفي أن نغيّر زاوية النّظر إلى عبد الكريم بحيث نقنع بتحويله إلى نموذج شرقيّ وقف بأمّ عينيه عند حقائق أثبتتها الوقائع، فما أتاه الطّيّارون التّسعة عشر في الولايات المتّحدة الأمريكيّة كشف بشكل مفضوح هشاشة الاستخبارات الأمريكيّة، والكاتبة لم تعبّر عن ذلك بطريق الفجاجة والمباشرتيّة بل رسمته من خلال استنطاق اصطدام المجتمع الأمريكيّ بالحقيقة هذه والتّعبير عنه على لسان جاكو. إنّ السّابقة الّتي حصلت أسقطت قناع القوّة الّتي لا تُقهر وأسقطت قناع البلاد الحقوقيّة الأبرز على وجه البسيطة، وقد اختزلت سلمى ذلك في تنكّر فرانكو لعبد الكريم ودعوته للتّنازل عن زوجته وابنته مقابل عدم مطالبته بحقّ ملكيّة الشّقّة الّتي لم يدفع ثمنها بل أودع صكوك ضمان عند صاحبها، وهو ما حكم عليه بالعودة بخفّي حنين إلى بلاد الرّافدين.

في خضمّ هاتيك الوقائع توزّعت الأمّة على لحظتين، لحظة افتخار بحاضرة العرب بغداد الّتي دكّت أحلام الغزاة قديما وحديثا ويكفي أن نذكّر بقدرتها على تحجيم الحلم الفارسيّ/الإيرانيّ الرّاغب في خليج فارسيّ بديلا عن الخليج العربيّ ولحظة غدت فيها تكريت ولا نظنّ المؤلّفة إلاّ متغيّبة وهي تختارها من بين مدن العراق يقطعها الغزاة طولا بعرض بعد أن حمّل السيد فرانكو أذناب الأمريكيين مسؤولية فتحهم الأبواب حتّى يدخلوها في معرض سخريّته من عبد الكريم.

كلّ هذه السّمات وغيرها حملتها الرّواية بين جوانبها ونطقت بثراها في غير خطابيّة سمجة بل وفي لغة سلسة تستمدّ عمقها من بلاغتها ومن حسن توزيع المؤلّفة لسجلاّتها وفق السّياقات ووفق المقول المصرّح به عل ألسنة

الشّخصيّات أو من خلال التّدخّلات والتّعليقات الّتي تؤكّد أنّ الكاتبة لم تستطع في نصّها الثّاني أن تتخلّص من الرّاوي العليم الّذي كانته حتّى في نصّها البكر ولا تزال، وحتّى من بوّابة الإيحاء والهمس بالمواقف وبالطّروحات الّتي يتحسّسها القارئ الحصيف من خلال اللّغة الإستعاريّة والمجازات المفخّخة الّتي تبدأ من العنوان "رقعة الشّطرنج"، فهو عنوان رامز بداية إشكاليّ نهاية، أمّا الرّمز ففي تحوّل العالمين الذّاتي والموضوعيّ إلى لعبة يدخلها المرء عبر شروطها القذرة على حدّ تعبير غادة السّمّان والوعرة على حدّ ما نرى، وأمّا الإشكاليّ فيه فمن حيث أنّه دافع للتّساؤل عن الرّابح وعن الخاسر من حيث المصائر وعنهما من حيث النّوع، أ كان فردا أم جماعة.

أسئلة تتناسل فتتوالد ويظلّ الهمّ إيجاد إجابة ينكسر على صخرة السّطر الأخير من الرّواية في غياب الإجابات المريحة.

الفصل الأوّل

تهادى في مشيته مقتربا منها يتقدّمه طبق يعلوه كوب وإبريق شاي.. وضع الطّبق أمامها على المائدة وضغط على زرّ آلة التّسجيل بجانبه فانبعثت منها ألحان عذبة مطربة وانبرت هي تُميل الرّأس ذات اليمين وذات الشّمال مترنّمة بأنغام تلك الموسيقى حينا مردّدة بعض المقاطع.. حاذاها ثمّ وضع الإبريق على موقد متوهّجة جمراته..

– أعرف أنّك لا تحبّين الشّاي إلاّ ساخنا وأنا أُرجّح أنّه قد بَرُد للمسافة الفاصلة بين المطبخ والغرفة وها أنا أضعه على الكانون علّه يستردّ بعض حرارته الضّائعة..

- أتسخر؟ المسافة بين المطبخ والغرفة ليست طويلة إلى هذا الحدّ.. البيت كلّه صغير وهو يتّسع بالكاد لي ولك.. قدري! لم يترك لي المرحوم غيره حتّى آويكم.. وأربّيكم..

- ما بكِ يا أمّاه؟ كنت أمزح معك.. أعرف أنّ مزاحي ثقيل كما أعرف أنّك حسّاسة جدّا.. ما كان عليَّ أن أسخر من هذا البيت الّذي آواني في صباي وفي شبابي وجعلني رجلا.. لا تحزني يا أمّي أرجوك..

- أنا لست حزينة يا ولدي.. بل هي الذّكرى..

- الذّكرى؟

- أجل.. ذكرى طفولتي وذكرى صباي وذكرى والدك المرحوم عبد الكريم.. قد أحيت فيّ هذه الأغنية الّتي وضعتها أشياء كثيرة..

- وما هي هذه الأشياء يا أمّاه؟.. تفضّلي هاكِ كوب الشّاي واسرُدي عليّ قصّتك من البداية.. أرجوك يا أمّاه.. أنا في شوق شديد لسماعها.. أرجوك..

- إنّها حكاية طويلة..

- ومع ذلك أريد أن أعرفها يا شهرزادي العزيزة..

- يا لك من عنيد! حسنا..

أخذت ترشف كوب الشّاي هُنَيْهَة وكأنها تفتّش في بقايا ذاكرتها وتحاول ترتيب ما تبقّى من أفكارها مستجمعة كلّ قواها.. عقدت حاجبيها وضاقت عيناها وكأنّها ترى أمامها نورا ساطعا لا تقدر معه على فتحهما وهي الّتي تعوّدت العيش في لجّة الظّلام.. ثمّ فتحت عينيها بعد أن اتّضح المشهد أخيرا وابتسمت ابتسامة تخفي حسرة وحزنا ثمّ قالت:

«منذ أكثر من خمسين سنة في قرية في جنوب بغداد عاشت عائلة يُقال لها عائلة الحاجّ حسن.. كان الحاج حسن تاجرا بسيطا له ستّة أبناء.. أربعة فتيان وبنتان هم حسب التّرتيب محمّد وأحمد وخديجة وكاظم وجاسم والصّغرى عائشة. كانوا يعيشون عيشة الكفاف طالما أنّ دخل الأب كان بالكاد يسدّ الرّمق.. إذا تغدّوا باتوا اللّيل على الطّوى وإن تعشّوا كان التّأدّم بالخبز والزّيتون.. ورغم ذلك لم يكن أحد منهم يتذمّر أو يشكو.. كانوا يدركون ضيق ذات اليد وقلّة المال وكانوا يحمدون الله على كلّ شيء.. وبحكمة الأمّ في التّدبير والادّخار واجتهاد الأب في توفير لقمة النّهار شبّ الأولاد واشتدّ ساعدهم ومرّت الحياة..

لمّا شبّ محمّد وبلغ الخامسة عشرة من عمره كانت عائشة قد بلغت الخمس سنوات.. كان على محمّد وهو في تلك السّنّ أن ينفصل عن المدرسة ليساعد أباه في تدبير لقمة العيش.. وكذا فعَل أحمد بعد سنتين.. أمّا كاظم وجاسم فقد أصرّا على متابعة تعليمهما..

وأمّا خديجة فمنذ بلوغها سنّ العاشرة لزمت أمّها في المطبخ وفي القيام بشؤون البيت حين كانت عائشة في لهوها ومرحها مع أبناء وبنات الجيران.. كانت عائشة فتاة على غرار كلّ بنات الحيّ شقراء.. شعرها بلون الذّهب وعيناها بلون العسل.. كانت صغيرة، بسيطة، نشيطة، باسمة الثّغر دائما، تمرح وتلهو طول النّهار.. وضفيرتاها تنسدلان على ظهرها تارة وتعبث بهما الرّياح تارة أخرى.. كثيرا ما كانت

تلعب مع أصدقائها برشّهم بمياه الوادي فيركضون خلفها محاولين اللّحاق بها فتجري وتجري بين الأعشاب والخضرة والأزهار والأشجار ولا يُعييها ركض ولا يجهدها لعب.. وتظلّ على تلك الحال طوال النّهار حتّى تقترب الشّمس من الأفق مؤذنة بغروبها وبحلول اللّيل.. ومُعْلِنة عن نهاية يوم لعب لم تكن عائشة تملّه أبدا.. كنت تسمع قهقهتها الموصولة ساعة لعبها رغم تحذيرات أمّها الّتي كانت تقول لها: «لا أريد أن أسمع قهقهاتك العالية.. كم مرّة قلت لكِ أنّ هذا عيب.. عندما تريدين الضّحك اضحكي بصوت خافت وباحتشام وإلاّ لن أتركك تلعبين مرّة أخرى خارج البيت..»

كان هذا الكلام يتردّد كلّ صباح ورغم إلحاح الأمّ لم تكن البنت تأبه لكلّ هذا الحديث.. كانت تكتفي بقول "حاضر" وما إن تضع قدمها خارج البيت حتّى يتبخّر كلام الأمّ بحرارة الشّوق لملاقاة الأصدقاء.. كانت الفتاة صغيرة السّنّ وكانت تلقائيّتها وبراءتها لا تسمحان لها بفهم كلمة "عيْب" أو "حرام".. وترمي عائشة بكلّ تحذيرات الأمّ ووعيدها عرض الحائط مقبلة على يوم ملؤه الحبور والمرح.. كانت تضحك ملء شدقيها وكأنّها كانت تدرك أنّ القدر سيخطف منها تلك السّعادة عمّا قريب.. أو أنّ الدّنيا ستحرمها تلك الضّحكة في يوم من الأيّام فقرّرت أن تنهل من ينبوع الهناء أكبر قدر تستطيعه حتّى تتمتّع به قبل فوات الأوان.. وكأنّها كانت تحدس ما يخبئه لها الزّمان..

وعندما يحلّ الظّلام وتجد نفسها مجبرة على ترك اللّعب والدّخول إلى البيت كان الحزن ينتابها وتعتريها الكآبة والكلّ يلومها على بكائها أحيانا وعلى حبّها الشّديد للّعب ولم يكن أحد يدرك- ولا هي نفسها- أنّ شعورها بالإحباط لم يكن مردّه ترك اللّعب بقدر ما كان إحساسا دفينا بأنّ يوما من حياتها السّعيدة قد مضى بلا رجعة وأنّ سعادتها قد نقصت يوما آخر وأنّ نهاية هذه السّعادة كانت تقترب كلّ يوم أكثر..

كانت مدلّلة كثيرا باعتبارها أصغر أخواتها سنّا.. كلّ ما تطلبه مُجاب.. وماذا كانت تطلب؟ لم تكن ترى أحدا حولها يمتلك أكثر ممّا تملكه هي حتّى تطلبه.. حتّى أصدقاء الحيّ كانوا بسطاء جدّا وربّما أشدّ فقرا منها.. حينما يستعدّ الأب للخروج صباحا كان يقول لها قبل أن يذهب:« هل تريد عائشة الغالية أن أشتري لها شيئا عند عودتي من العمل؟»

وكانت هي تردّ بحنان ورقّة: «أريد سلامتك يا والدي.. وأريد كذلك كيسا كبيرا من الحلوى حتّى أوزّعه على أصدقائي»

كان كيس الحلوى الكبير هو أقصى أُمنية تستطيع عائشة تمنّيها وحتّى هذه الأمنية لم تكن لها بل لأصدقائها..

عاشت عائشة طفولتها بكلّ صفاء وعندما بلغت أختها خديجة السّادسة عشر من عمرها كان عمر عائشة قد ناهز العقد الأوّل.. في تلك السّن انقلبت حياة الفتاة رأسا على عقب.. تزوّجت أختها وانتقلت لتعيش مع زوجها في تكريت..

وبعد أسبوع واحد من زواج خديجة صارت عائشة مرغمة على صغر سنّها على أن تقاسم أمّها أعباء البيت وما أكثرها.. لم تعد تخرج من البيت إلاّ لِماما لجلب الماء من الوادي.. تركت اللّعب والمرح واللّهو مرغمة وصارت تتحمّل مسؤوليّات امرأة بين ليلة وضحاها.. أخذت أمّها تعلّمها الطّبخ وتقول لها بين الفينة والأخرى : «تعلّمي الطّبخ تعلّمي.. ماذا ستفعلين لو تزوّجت غدا.. ستهلكين زوجك جوعا؟»

لم تكن الفتاة تدرك ما تلقي به الأمّ على مسامعها ولا تُعيره أيّ اهتمام.. طَبْخ.. زواج.. زَوْج.. أين هي في تلك اللّحظة من أيّام اللّهو والمرح؟.. كانت تودّ وهي تسمع ضحكات أصدقائها ترنّ وراء الباب لو تسرق لحظة واحدة من تلك السّاعات القاسية لتلعب في الخارج..

وكم كانت تطير فرحا حينما تأمرها أمّها أحيانا بملء الجرّة من ماء الوادي.. وكأنّها خرجت لتوّها من السّجن إلى

الفضاء الأرْحب.. كانت تخطف الجرّة وتحتضنها بيْن ذراعيها وتُيَمِّمُ وجهها شطر طريق الوادي الّذي لم يكنْ يبعُد كثيرا عن البيت، وفي الطّريق كانت توزّع التّحايا الحارّة على أصحابها وتحادثهم برهة من الزّمن ثمّ تُنفِلت منهم حتّى لا تتأخّر فتلحقها لعنة الحرمان من الخروج ثانية إلى الوادي.. كانت كلّما جلست تملأ جرّتها تقول في نفسها: «إيه يا واديَّ الغالي منذ ستّ سنوات كنتُ ألعب بمياهك فأرشُّ بها أصحابي.. لو فعلتها الآن وأنا شابّة في الثّالثة عشرة من عمري لَوَصل خبر جنوني إلى دكّان والدي لِتوّه ولَحرموني من زيارتك لمدّة لا أعرف نهايتها.. لَلاكت ألسن الجيران سلوكي وتصرّفي ولَقالوا أنّني لم أملَّ اللّعب حتّى وأنا شابّة.. لكنّني لستُ شابّة.. أنا مازلت طِفْلة وأحبّ أن ألعب.. لم أتركْ اللّعب يوما بإرادتي.. أجبروني على ذلك.. وربّما لو تركوني ألعبُ لأدركت بنفسي بعد فترة وجيزة أنّني مللتُ اللّعب.. أجل لكنّهم أجبروني على ترك كلّ شيء دفعة واحدة ووجدتُ نفسي وأنا لم أبلغ بعدُ العاشرة من عمري أقاسم أمّي أعباء البيت يدا بيد.. كلّ هذا صار بين ليلة وضحاها.. كنتُ بالأمس ألعب واليوم صار باب الدّار حائلا دون جنّة السّعادة.. ووجدتُ نفسي فجأة حبيسةَ جدران البيتِ الّذي لم أمكث فيه من قبل إلاّ السّويعات الّتي كنتُ أنامها في اللّيل! الآن أكتفي فقط يا وادي العزيز بملء جرّتي بمائك وقلبي بصفائك وعينيّ بجمالك..»

هكذا مرّت السّنوات التّالية من طفولة عائشة.. خمس سنوات مرّت ثقيلة لم تذق فيها الفتاة سوى التّعب والملل والخضوع وافتقدت فيها تلقائيّتها ومرحها وبهجتها وكست وجهها مسحة من الحزن والقلق وصار كلّ همّها أن تتزوّج وتنتقل من كوخ البؤس ذاك إلى عشّ الزّوجية السّعيد مع شاب وسيم يحبّها وتحبّه وتعيش معه في هناء وتستعيد معه فردوسها الضّائع فرحتها الّتي سرقت منها وهي في عزّ طفولتها.. شابّ يكون في العشرين من عمره.. فاحم الشّعر..

باسم الثّغر.. قويّ البنية.. مفتول العضلات.. كانت تحلم، وإن كفّ الحلم فلتحلم من جديد، دون أن تحدس ما تخبّؤه لها الأقدار..

يوم بلغت الخامسة عشر من عمرها حُجّرت عليها مغادرة البيت إلاّ في ما ندر من المناسبات.. ليلتها قال العمّ حسن لزوجته: «صار موضوع عائشة يشغل بالي كثيرا يا أمّ محمّد.. غدا تبلغ الخامسة عشر ولم يتقدّم لخطبتها عريس واحد.. كما أنّ ذهابها إلى الوادي بين اليوم والآخر دون ملاية صار يحرجني.. البنت كبرت ويجب أن تلزم البيت حتّى يأتيها عريسها كما فعلت خديجة قبلها..» كانت عائشة تسترق السّمع إلى ما يدور بين والديها من أحاديث، وبقدر ما انزعجت بقدر ما طفقت تجد عذرا لأمّها وقد جعلها الأب على ابنتها وصيّا..

لم يكن سهلا عليها أن تفارق واديها دون أن تودّعه، لذلك أخذت ترجو أمّها أن تتركها تذهب إليه للمرّة الأخيرة..

- أرجوك يا أمّاه.. أريد الذّهاب إلى الوادي..

- ولِمَ تفعلين هذا؟

- لكي أودّعه..

- يا للمصيبة! تودّعينه؟ تودّعين من؟ هل كنت تقابلين شابّا هناك بدون علمنا؟

- لا يا أمّاه.. أقسم لك أنّ ظنّك ليس في محلّه.. أنا أريد توديع الوادي..

- الوادي؟ يا للهذيان!

- أنا لا أهذي.. أرجوك يا أمّي.. إنّه المكان الأحبّ إلى قلبي من أيّ مكان آخر في القرية..

- لك ذلك على أن تتلحّفي بهذه الملاية السّوداء.. وألاّ تكلّمي أحدا في طريقك.. وألاّ تتأخّري في العودة.. لو آب أبوك وعلم بالأمر لمزّقني ومزّقك إربا إربا..

ولم تمرّ أسابيع قليلة على هذا حتّى كانت المفاجأة.. أو قلْ كانت المأساة.. عاد الأب من شغله.. دخل الدّار مهلّلا

مكبّرا والفرحة تتقافز من عينيه.. فدنت منه أمّ محمّد قائلة باستغراب فضحته ملامح وجهها ونبرات صوتها:

- خيرا يا سي حسن..

- خير كثير يا امرأة.. مبروك.. مبروك يا عائشة.. السّيّد عبد الكريم صاحب أكبر متجر في القرية طلب يدك منّي..

- وماذا كان ردّك يا سي حسن؟

- وافقت طبعا.. وهل لنا أن نصادف أفضل منه زوجا لابنتنا الغالية؟ صحيح أنّه يكبرك قليلا في السّنّ يا ابنتي لكنّه غنيّ وستعيشين معه عيشة مترفة وتخرجين من حياة البؤس الّتي تعيشينها معنا..

ونزل هذا الخبر على عائشة نزول الصّاعقة.. ولم تجد إلاّ أن تذهب إلى الغرفة وتجلس على السّرير وتضع وجهها بين كفّيها وتجهش بالبكاء.. كانت المسكينة تعلم أنّ عبد الكريم هذا يكبرها على الأقلّ بخمس وعشرين سنة.. إنّه رجل في الأربعين من عمره.. نبتت في جانبي رأسه بعض الشّعيرات البيضاء.. لم يكن شابّا.. لم يكن فاحم الشّعر.. لم يكن قويّ البنية.. لم يكن مفتول العضلات.. لم يكن كما تمنّت أبدا..

كانت تنحب وتقول في نفسها: «لن أتزوّج الشّخص الّذي ارتسمت صورته في خيالي.. والأدهى من ذلك وأمرّ أنّي سأتزوّج شخصا في سنّ والدي.. سأنتقل من سجن أبي إلى سجن زوجي.. سأكون بمثابة خادمة مطيعة تنفّذ الأوامر الّتي تطلب منها فحسب.. لن أستردّ معه سعادتي الّتي حرمني منها الزّمان بل على العكس.. سأدفن أكثر فأكثر.. ووالدي المسكين يظنّ نفسه قد خلّصني من بؤسي وهاهو يزيدني همّا على همّي ويكبّدني أعباء تنوء الجبال لحملها.. ماذا سأفعل الآن؟ هل سأعصي أمر والدي الّذي لم يصدّق نفسه حين وجد زيجة مناسبة فأمانع أنا؟ هل أقول لأبي أنّني رافضة فأجعله في موقف حرج وأضعه بين المطرقة والسّندان؟ بين أن

يغصبني على الزّواج وينفّذ وعده للسّيّد عبد الكريم أو يوافقني على مرادي ويخلف وعده ويصير محلّ سخرية كلّ رجال القرية.. هذا موقف صعب جدّا..»

كانت كلّ هذه الأفكار تجول بخاطر عائشة.. لم يضع الأب في اعتباره إمكانيّة رفض البنت فهذا الزّوج تتمنّاه أيّة فتاة خاصّة في الحالة الّتي تعيشها من شظف وضعف حال وتعب.. لكنّ عائشة أخذت بعين الاعتبار شقاء والدها في تدبير لقمة العيش وتهاطل مصاريف دراسة أخويها كاظم وجاسم فقرّرت أن تخفّف من حمله وتوفّر عليه مصروفها وربّما استطاعت بعد ذلك أن تعين أهلها بمال زوجها الثّريّ.. فقرّرت أن تسلّم أمرها لله وتقبل الزّواج..

وفي الأسبوع الموالي كان عقد قران عائشة على السّيّد عبد الكريم.. وكان العريس في غاية السّعادة.. أقام لها عرسا كبيرا لم تكن تحلم به أبدا.. ولئن كانت فخامة حفل الزّفاف تعكس حياة الرّفاهة الّتي ستعيشها معه عائشة إلاّ أنّ الفتاة لم تكن مهتمّة أبدا بكلّ ذلك البذخ بقدر ما كانت تتخيّل السّيّد عبد الكريم زوجا لها وهو يكبرها بكلّ تلك السِّنون.. كيف ستتصرّف معه وهو لا يصغر والدها إلاّ ببضع سنوات تعدّ على أصابع اليد الواحدة؟ لم تتمكّن من تخيّل المشهد فكانت ليلة عمرها تلك ليلة مظلمة مدلجة.. كان بودّها لو بكت لكنّها لم تفعل.. لم ترد تنغيص فرحة والديها في تلك اللّيلة فخيّرت أن تصمد..

ومرّ ذلك الحفل بسلام ووصلت العروس إلى منزلها.. كان واسعا بخلاف منزل والديها.. فارغا قفرا إلاّ من أثاث جميل وفاخر.. انبهرت عائشة للوهلة الأولى بجمال البيت لكنّها حينما تذكّرت زوجها تكدّر حالها واعتراها الغمّ.. لكنّ السّيّد عبد الكريم الّذي لاحظ قلقها منذ بداية الحفل قطع الصّمت المطبق المخيّم على الجوّ بأن قال لها: « هل أعجبك البيت؟» فاصفرّ وجهها وانتابتها رعدة شديدة.. تلك هي أوّل

مرّة يحادثها فيها بصفته زوجها.. لم تكن تعرف كيف تردّ عليه.. كانت تراه وهي صغيرة عندما كانت تلعب أمام بيتها.. كانت دائما تسلّم عليه بكلّ براءة وكان هو أحيانا يقدّم لها الحلويّات.. كانت تحبّه كوالدها.. لم يتبادر لها في يوم من الأيّام أنّه سيصير زوجها وربّما أبا أولادها.. خجلت كثيرا حينما كلّمها.. لم تنبس ببنت شفة.. بل ظلّت تنظر إليه وهي بالكاد تستطيع رفع عينيها من الأرض.. كان يخيّل لها أنّها تراه للمرّة الأولى في حياتها.. وكأنّه شخص غريب عنها.. تدارك هو الموقف وبادرها بقوله:

- لا تخجلي.. البيت بيتك.. وإن لم يعجبك شيء في نظامه أخبريني وأنا على الفور أغيّره كما تشتهين..

- العفو يا سي عبد الكريم.. البيت رائع..

- أوّلا، لا أريد ألقابا بيني وبينك.. ناديني عبد الكريم كما أناديك أنا عائشة.. أم أنّك تريدين أن أناديك السّيّدة عائشة؟

ضحكت عائشة من فرط المفاجأة.. لم يكن عبد الكريم كما توقّعت أبدا.. كان خفيف الظّلّ.. كلامه لا يعكس أبدا سنّه.. كان ظنّها به في غير محلّه.. كانت تظنّه رجلا خشنا.. كانت تظنّه تقليديّا سيئ الطّباع صعب المراس.. لكنّه على ما يبدو شابّ في ثوب كهل..

ومرّت الأيّام وكانت أيّاما غاية في الرّوعة.. كان عبد الكريم يعامل عائشة كحبيبة له وصديقة.. كان لا يخفي عنها شيئا.. حتّى أنّه صارحها بحبّه لها منذ كانت صغيرة.. وقال لها أنّه عزف عن الزّواج بسببها لأنّه كان ينتظرها حتّى تكبر.. أُعْجِبَت عائشة بطيبة قلب زوجها وحنانه ورقّته فأحبّته كثيرا واطمأنّت له وصارحته ذات مرّة بكلّ ما انتابها من أحاسيس تجاهه عندما علمت بخبر خطبته لها: «أ تعرف يا عبد الكريم؟ عندما طلبتَ يدي من والدي أحسستُ أنّني سأتزوّج عجوزا وأنّني سأُقبر معه إلى آخر حياتي لكنّي والحمد لله كنت مخطئة.. أنت حقّا أروع شخص قابلته في

حياتي». عندها قال لها: «أ تعرفين ماذا قال ناظم الغزالي في إحدى أغانيه؟ قال:
"عيّرتني بالشّيب وهو وقار يا ليتها عيّرتني بما هو عار".»
كان عبد الكريم يحبّ كثيرا ناظم الغزالي ويحفظ كلّ أغنياته ويتتبّع كلّ أخباره عبر المذياع لذلك كان اسم أوّل ابن له ولعائشة: ناظم!
كان يجلس كلّ مرّة على البساط ويفتح المذياع ليسمع أنغام أغاني مطربه المحبوب هذا ويتمايل مع كلّ لحن وكلّ نغم ويميل رأسه يمينا وشمالا ويردّد الأغنية كلمة بكلمة حتّى تنتهي..
ومرّت السّنوات وأنجبت عائشة بعد ناظم بنتين الأولى جسماء والثّانية فاطمة، وإثر ولادة فاطمة بأربعة أشهر انقلبت حياة العائلة الهادئة رأسا على عقب.. تحوّل المرح إلى حزن دائم والهناء إلى شقاء متواصل والسّعادة إلى ألم وعناء..
يومها عاد عبد الكريم من شغله مصفرّ الوجه.. شاحب اللّون.. مغتمّا.. محنيّ الظّهر وكأنّه يحمل كلّ هموم الدّنيا على كاهله.. دلف إلى غرفة النّوم فوجد عائشة تحيك ثياب المولود الجديد.. تهالك على أقرب كرسيّ اعترض طريقه وجبينه يتصبّب عرقا..
- ما بك يا عبد الكريم؟ هل حدث في الشّغل ما يعكّر الصّفو لا سمح الله؟
- ضعتُ يا عائشة.. ضعنا.. ضاع الشّغل.. ضاعت حياتنا.. ضاع كلّ شيء..
- ما بك يا عبد الكريم؟ تكلّم أرجوك! يكاد يُغمى عليّ من الهلع.. ماذا حدث؟
- متجري الّذي نقتات منه.. أكبر متجر.. احترق البارحة.. احترق واحترقت معه كلّ آمالي وأحلامي وأملي في الحياة.. من أين سنعيش ونربّي أولادنا؟.. من أين؟

- لا داعي لكلّ ما تفعله بنفسك يا عزيزي.. إنّه قضاء ولابدّ لنا من أن نرضى بنصيبنا.. أصمد يا عبد الكريم.. أصمد وأنا معك والله معنا..

كان هو يكاد ينفجر من البكاء.. مورد رزقه الّذي بنى به هذا البيت المحترم وأقام به تلك الزّفّة يضيع.. مورد رزقه الّذي تقتات منه زوجته وعياله.. ضاع.. تبخّر بين ليلة وضحاها.. كيف لعاقل أن يحتمل تلك المصيبة؟

وكانت هي تصبّره وتواسيه وفي داخلها جمرة من اللّهب تتّقد وتتّقد وقلبها يكاد يحترق من فرط اللّوعة والخوف من الغد الغامض.. كانت تجاهد حتّى تمسك العبرات الّتي ملأت مآقيها..

لم يكن عبد الكريم رجل أعمال ولا رجلا ثريّا بالمعنى الواسع للثّراء بل إنّ امتلاكه لبيت محترم ولمورد رزق قارّ جعله أفضل من أيّ رجل في القرية بل أغناهم.. فجلّهم كانوا يعملون حرفيّين وكانوا لا يمتلكون فلس اليوم للغد بل لم يكونوا حتّى قادرين على توفير فلس اليوم لليوم.. لذلك فقد كان ضياع مورد رزق عبد الكريم بمثابة عودة إلى الوراء..

في تلك اللّحظة، قال عبد الكريم لعائشة:

- كان معكِ كلّ الحقّ حينما قلتِ أنّك تزوّجت عجوزا.. لو كنتُ شابّا لربّما قدرتُ على الصّمود أمام هذا التّيّار الّذي يأخذني إلى الهاوية..

- لا.. لا تقل هذا يا عبد الكريم.. إن لم تتشجّع من أجلي فاصمد لأولادنا.. وقاوم.. سنستعيد الّذي ضاع منّا بإذن الله.. لازلتَ صنديدا كما كنتَ وأكثر..

لكنّ حزن عبد الكريم لم يقتصر على ضياع متجره بقدر ما كان خوفا ممّا سيتبع ذلك من تداعيات، كان خوفه من أن تتكدّس عليه ديون تجّار الجملة فوق كلّ خوف.. لم ينتبْه ذلك الشّعور من قبل.. الشّعور بالنّقمة على الدّنيا الّتي وضعت بين الغنى والفقر خيطا رفيعا قطعته صروفها فجعلت من

التّاجر بعد الغنى رجلا فقيرا بل محتاجا! انصبّ كلّ تفكيره على أولاده.. مَن سيتولاّهم بعد إفلاسه؟ سيتولاّهم الرّزّاق..

وانقلب خوف عبد الكريم بعد أيّام إلى واقع ملموس.. واقع بشع.. كابوس ربّما لن يفيق منه.. طرق يومها الدّائنون بابه مطالبين بأموالهم فلم يجد من بدّ سوى بيع منزله الكبير الّذي بناه بعرق جبينه وشقاء أيّامه ولياليه.. باع آماله وطموحه لمستقبل أفضل مع تلك الأسرة البسيطة.. عندما أمضى عقد بيع المنزل قال لعائشة وعيناه محمرّتان كمدا ووجهه بلون اللّيمون اصفرارا:

«لا تخافي.. لن نسكن في الشّارع أو على الرّصيف.. لديّ بيت بسيط يبعد عن هنا زهاء الكيلومتر.. هو طبعا أبسط من هذا البيت بكثير بل إنّ مساحته كلّها لا تغطّي مساحة غرفة الجلوس في هذا البيت الّذي لم يعد الآن بيتنا..»

كان يتكلّم بصعوبة ووجهه ينطق همّا وتعاسة.. أدركت زوجته ما يعانيه فربّتت على كتفه بيد حنونة وقالت: «لا تحزن يا عزيزي.. البيت على ضيقه رحب بوجودك فيه معنا.. وأنا أعدك بأنّني سأجعله لك جنّة تنسيك كلّ متاعبك..»

وانتقلت العائلة إلى البيت الجديد.. في الطّريق حمل عبد الكريم جسماء وفاطمة وأمسكت عائشة ناظم من يده الصّغيرة وهو يسير إلى جانبها صامتا لا يبكي ولا يتكلّم وقد بلغ آنذاك أربع سنوات.. ورغم صغر سنّه كان يبدو فطنا بكلّ ما يدور حوله وكأنّه لم يرد تعكير الجوّ أكثر فخيّر مسايرة الجميع..

مرّ شهر كامل على انتقال العائلة.. خلال هذا الشّهر ظلّ عبد الكريم طريح الفراش يعاني آلاما في قلبه.. فاضطرّت عائشة إلى إنفاق كلّ المال الّذي كانت تدّخره لوقت الحاجة.. و سدّ ذلك المال على قلّته رمق العائلة..إلى أن توفّي عبد الكريم بعد صراع مرير مع الموت تاركا عائشة الّتي جاوزت العشرين بشهور أرملة وأمّا لطفل لم يبلغ الخامسة بعد

وطفلة تحبو على الحصير وأخرى لا تزال في حضنها وجنين في بطنها.. مَن لهذه العائلة البائسة غير القدير؟

صمدت عائشة وقاومت ظلم الحياة وقسوتها.. أضحى أخوها جاسم المهندس وأخوها كاظم الطّبيب يرسلان لها بين الفينة والأخرى قليلا من المال من بغداد.. فكانت العائلة في معترك الحياة أشبه بقطعة من الفلّين في عباب البحر تغطس أحيانا وتطفو أحيانا أخرى.. وبكثير من الصّبر وقليل من المعونة استطاعت عائشة أن تربّي أولادها وتجعلهم بناتا ورجالا أشدّاء..»

* * *

أطرقت الأمّ بعد سرد الحكاية وعيناها ممتلئتان حزنا وحسرة وذكرى، ثمّ نظرت إلى ابنها فوجدته مندهشا:

- أ تعرفين يا أمّاه؟ لم أكن أعلم شيئا عمّا قاسيته أبدا..

- وماذا كانت تفيد معرفتك بالأمر؟ المهمّ أنّك كبرتَ الآن وصرتَ رجلا يُعتمد عليه كما كان والدك رحمة الله عليه..

- ولِم لم تتزوّجي بعد وفاة أبي خاصّة وأنت ما تزالين شابّة حتّى ذلك الوقت؟

- وفائي لوالدك.. وخشيتي من الإنشغال عن تربيتكم.. أنتم أمانة تركها لي عبد الكريم لذلك وجب عليّ أن أهب روحي وعقلي وكلّ شيء أملكه مقابل أن أحافظ عليكم وأن أراكم تكبرون وأن أرى فيكم صورة المرحوم..

- ولِم لم تنتقلي للعيش مع جدّي حسن آنذاك؟

- هو أوّلا الوفاء لكلّ ما تركه والدكَ من بعده.. وثانيا لأنّ والديّ في ذلك الوقت كانا مهتمّين بزواج كاظم وجاسم.. ثمّ إنّ بيتهما كان ضيّقا جدّا ولن يتّسع لسبعتنا.. هما لم يصدّقا نفسيهما حينما كبرنا وغادرنا البيت فأجلب أنا لهما أبناء آخرين؟

- فعلا يا أمّي.. كم أنتِ وفيّة وحكيمة.. وأنا أعدكِ أنّني سوف أبدأ من الغد بالبحث عن شغل أعوّضكِ به عن كلّ ما فاتكِ..

- اشتغل ووفّر مالكَ لمستقبلك فأنت في حاجة ماسّة إليه أكثر منّي.. لن يطول بقائي في الدّنيا كثيرا..

- لمَ تقولين هذا؟ أبعد الله عنكِ كلّ شرّ.. لن أوفّر شيئا لمستقبلي.. وماذا فعل والدي من قبل حينما وفّر أمواله لمستقبله؟ ألم يتبخّر كلّ شيء في لمح البصر؟

- كان هذا قضاء وقدرا يا بنيّ..

- لا أريد أن أجمع المال حتّى أموت حسرة عليه فيما بعد يا أمّاه..

قال هذا وهمّ بمغادرة المكان.. فبادرته الأمّ بالسّؤال:

- إلى أين يا عبد الكريم؟

- أنا ذاهب إلى سعيد ابن الجيران..

ثمّ أغلق الباب تاركا الأمّ تقول في نفسها: «خسارة.. لست كوالدك أبدا لم تأخذ منه إلاّ الملامح والاسم لكنّك لا تملك نفس طباعه.. أنت عنيد وأنا خائفة عليك من نفسك.. هداك الله يا ولدي وأنار السّبل في وجهك».

الفصل الثّاني

طرق عبد الكريم باب منزل الجار الحاج محمود والد سعيد ففتحت أمّ سعيد الباب مرحّبة:

- أهلا وسهلا بعبد الكريم.. تفضّل ادخل..

- أنا آسف على الإزعاج في هذا الوقت يا خالة.. هل سعيد موجود؟

- لا تتأسّف يا ولدي.. ادخل.. سعيد في غرفته..

دلف عبد الكريم إلى فناء الدّار متقدّما الخالة الّتي كانت تمشي في تؤدة وتقول:

- مازالت السّاعة لم تدقّ الثّامنة مساء وأنا بصدد إعداد طعام العشاء ابق معنا وسأنادي أنا عائشة حتّى نتعشّى سويّة..

- لا يا خالة.. لا داعي لذلك.. جئت فقط لأتحدّث قليلا مع سعيد.. وأكون ممتنّا لو أعددت لنا كوبين من الشّاي من يديك..

- طبعا يا بنيّ.. لحظات فقط ويكون لك ما طلبت..

كانت الخالة أمّ سعيد مثالا للأمّ الحنون والمرأة الصّالحة.. كانت تعطف على الكلّ وتحنّ على الكلّ.. وجميع أهل القرية يعرفونها ويعرفون طيبة قلبها ورحابة صدرها.. كانت ستعيش في أتمّ السّعادة لولا أنّ ابنها الوحيد على الرّغم من ذكائه وفطنته لم ينجح في دراسته ولم يوفّق في إيجاد عمل يساعد به نفسه ووالديه على صروف الحياة وهو الّذي بلغ الخامسة والعشرين من عمره.. لم يكن ما يشقيها ثقل مصاريف العائلة وقلّة ذات اليد بقدر ما كان سبب عنائها خوفها على ولدها من بنات الدّهر بعد أن يصير وحيدا في الدّنيا وجها لوجه أمام متاعبها لا عائل يعيله ولا مورد رزق يسدّ رمقه وخوفها عليه من مستقبل غامض ينتظره وهو الّذي لا يريد الزّواج قبل أن يكفل كلّ ما تستحقّه هذه المسألة من

ترتيبات.. وكيف يكون له ذلك وهو لا يعمل ودخل والده لا يفي بالحاجيات الضّئيلة والضّروريّة للبيت حتّى؟

طرق عبد الكريم الباب ودلف الغرفة دون أن ينتظر إذنا بالدّخول فوجد سعيدا مستلقيا على فراشه يغطّ في نوم عميق.. اقترب منه وأزاح عنه الغطاء وهو يقول له محاولا إيقاظه: «سعيد! سعيد! هيّا استيقظ! سعيد! يا لك من كسول.. سعيد!»

تململ سعيد وعيناه مغمضتان وقال محاولا عبثا إسكات موقظه:

- اتركيني أنام قليلا يا أمّاه.. لا أريد أن أتعشّى..

- تتعشّى؟ أكل ونوم؟ ما هذه الحياة؟ استيقظ يا سعيد! أنا عبد الكريم!

وعندها فتح سعيد عينيه مندهشا وجلس في الفراش كالمذهول قائلا:

- عبد الكريم؟ من أين نزلت؟ متى أتيت؟ منذ متى وأنت هنا؟

- ما بك يا سعيد؟ لِمَ كلّ هذا الفزع؟ أنا هنا منذ دقائق..

- لقد بحثت عنك طويلا اليوم.. منذ الصّباح لم أرك.. ذهبت إلى مقهى الصّفاء ثمّ إلى دكّان أبي سليم علّني أجدك هناك.. فلمّا يئست من العثور عليك عدت إلى البيت..

- لم أخرج اليوم من بيتي منذ الصّباح..

- تصوّر..لم يخطر ببالي أبدا أن أبحث عنك في بيتك.. كنت على يقين من أنّك غير موجود فيه لذا لم أرد إزعاج والدتك.. ولكن ما الّذي حدث؟ لست معتادا على المكوث في البيت كلّ هذه المدّة!

- قلْ لي أنت أوّلا لِمَ كنتَ تبحث عنّي؟

- أريد أن أشكوك همومي يا صديقي..

- همومك؟ لا أرى لك هموما.. وأيّة هموم ترديك مستلقيا على الفراش تنام نوما هنيئا وتحلم بالعشاء؟..

- كلاّ.. لم يكن أبدا نوم الهناء كما تظنّ، بل هو نوم المهموم التّعيس.. صرت أحسّ أنّني عالة على والدي.. أنّني غير قادر على تأمين مستقبلي.. ولا على بناء عائلة كغيري من الشّبّان.. أنّني إنسان فاشل عاجز عن فعل أيّ شيء عدا الأكل والنّوم..

- ألم تعثر على عمل حتّى اليوم؟

- عمل؟ لم أجد سوى البناء وظيفة!

- وإن يكنْ.. كلّها أعمال شريفة..

- كفاكَ أشعارا أرجوك.. أنا لا أريد أن أشقى طول النّهار حتّى أجمع بضعة نقود لا تكفي حتّى لشراء غداء اليوم..

- قلْ لي ماذا تريد أن تعمل إذن؟ مدير شركة أو مهندسا فلاحيّا أو رجل أعمال؟

- معك حقّ.. أنا لا أملك شهاداتك ولا مؤهّلاتك حتّى أعمل مثل الآخرين..

- كفى هراء.. مصيبتي الّتي جئت لأحدّثك عنها هي ما تحسدني عليه أنت الآن..

- ماذا تقصد؟

- كلام قالته لي أمّي جعلني أفكّر في مستقبلي بطريقة أخرى، قلب فكري رأسا على عقب..

- وكيف ذلك؟

- أ تعرف يا سعيد؟ أنا عكسكَ تماما! أنت شابّ تعيش مع والديك.. وهما يفكّران فيكَ وفي مستقبلكَ.. تمتّعا بالدّنيا.. أنجباك وليس عليك أنت الآن إلاّ أن تفكّر في غدك.. أن تساعدهما فقط بأن تنزع عنهما حملك الثّقيل وأن تسعدهما بأن تعمل وتتزوّج وتنجب أولادا وأن تهتمّ في النّهاية بنفسك وأن تضحّي لأجل نفسك أوّلا ولأجلهما ثانيا.. ومشكلتك أنّك لا تملك الإمكانيّات.. لا تملك مثلا شهادات مثلي تؤهّلك للظّفر بوظيفة مرموقة.. أمّا أنا فعلى العكس تماما.. أنا ولدت

محروما من حنان والدي لأجد نفسي وسط عائلة كبيرة.. ثلاثة أطفال.. أختان وأخ يكبرني بأربع سنوات وأمّ شابّة مسؤولة عن كلّ شيء.. كثيرا ما حدّثني أخي ناظم عن تضحيات أمّي الجِسام وصراعها مع الحياة حتّى تقدر على توفير كلّ سبل العيش الكريم لأولادها.. وتمكّنها بعد لأي من جعْلنا رجالا ومن تزويج أختيَّ.. لكنّ وفاة ناظم منذ ثماني سنوات في الحرب قلَبت حياتنا كلّها.. كبُرت أمّي كثيرا وصارت غير قادرة على مجابهة الحياة لوحدها.. وصار لزاما عليّ أن أرعاها أحيانا وأن أسهر على راحتها.. لذلك قطعتُ على نفسي عهدا منذ أن سمعتُ حكايتها اليوم ولأوّل مرّة وعرفت الظّروف البائسة الّتي عاشتها بعد وفاة والدي أن يكون مستقبلي لها.. ولكن كيف؟ هذا ما يحيّرني!

- تحتار وأنت تملك ما يؤهّلك لتصير مدير شركة ببغداد؟

- لا أريد أن أبقى هنا.. أريد أن أسافر.. وأودّ منك أن تساعدني..

- لو كان في مقدوري مساعدتك لساعدت نفسي على إيجاد عمل وأنا أمامك جالس مكتوف الأيدي..

- حاول أرجوك حاول..

- لن أبخل عليك يا عزيزي بالمعونة لو كانت في استطاعتي.. أنت تعرف أنّك بمثابة أخ لي.. سأبذل كلّ ما في وسعي..

- شكرا لك يا سعيد.. لن أنسى لك جميلكَ أبدًا..

وغادر عبد الكريم بيت سعيد متفائلا قليلا بأنّ الغد سيكون أفضل من اليوم وأنّه أخذ يقترب من تحقيق حلمه مؤمنا بأنّه بالعزم قطع نصف طريق النّجاح..

دخل بيته فوجد أمّه جالسة كما تركها على البساط تستمع إلى أغاني ناظم الغزالي.. وما إن رأت ابنها حتّى استبشرت وقالت:

- الحمد لله أنّك عدت قبل أن أنام..
- تنامين؟ دون عشاء؟
- ظننتك ستتعشّى في بيت أمّ سعيد..
- وهل يُعقل هذا؟ لن يحدث هذا أبدا.. لن تتعشّي ليلة وحدك ما دمت حيّا..
- سلمت لي يا ولدي.. كنت أنتظرك بفارغ الصّبر حتّى أخبرك بما دار في خلدي بعيد انصرافك..
- خيرا إن شاء الله..
- كلّ الخير يا ولدي.. لقد بلغتَ من العمر خمسا وعشرين سنة.. ألن تفكّر في الزّواج؟
- الزوّاج؟ والشّغل.. من أين سأصرف على عائلتي؟.. هل تظنّينني فتاة تتزوّج وتذهب مع زوج ينفق عليها؟ أنا رجل وعليّ أن أفكّر أوّلا في العمل قبل التّفكير في بناء أسرة..
- وهل تظنّ امرأة مثلي خبرة وشقاء يفوتها كلّ ما قلته؟ لقد علّمتني صروف الدّهر يا ولدي ما لم يعلّمه لكَ مدرّس ولا مدْرَسة..
- أنا آسف يا أمّاه.. أنا لم أقصد إهانتك أبدا.. لكنّني..
- لقد فكّرت في كلّ ما قلته منذ حين.. لقد عرض عليّ خالك جاسم منذ أسبوع أن تعمل موظّفا في شركته، لكنّني فضّلت أن أتركك تعتمد على نفسك في البحث عن الشّغل، وما دمت لم تفلح..
- موظّف؟ وأنتظر كلّ شهر بضعة جنيهات يلقيها لي المدير كما يُلْقَى العظم للكلاب؟
- لِمَ تفكّر بهذه الطّريقة؟ ولِمَ تأخذ الأمور بهذه الحساسيّة المفرطة؟ أ لأنّك تقدّمت قليلا في التّعليم عن باقي شبّان الحيّ تظنّ نفسك علاّمة عصرك؟ دع الكِبْر يا ولدي وانظر إلى الحياة كيف هي وإلى قطار عمرك الّذي يسير وأنت واقف.. لا تكنْ ابن يومكَ.. ستمرّ السّنين وتجد نفسك واقفا غير قادر على الرّجوع إلى الوراء ولا على المرور إلى

الأمام.. ستجد نفسك في طريق مسدودة لا تملك معها إلاّ تمنّي عودة شباب ناضر قد ضاع هباء.. كُفَّ عن غرورك المبالغ فيه وكنْ واقعيّا أكثرَ..

- معك حقّ يا أمّاه.. لكنّني شابّ طموح.. لا أريد أن أدفن في سراديب هذه المدينة.. أريد أن أغرف أكثر ما يمكن من وسائل الرّفاه حتّى أعوّضك عن شقاء نصف قرن من الزّمن..

- أنا لا أريد منك شيئا سوى أن تهتمّ بحياتكَ ومستقبلكَ..

- لكنْ لم يكن العمل موضوعنا بل الزّواج.. أذكر أنّك قُلتِ لي "ألن تفكّر في الزّواج؟" أليس كذلك؟

- أجل.. لقد وجدت لك العروس المناسبة.. إنّها صفاء ابنة خالك أحمد.. ما رأيكَ؟

- صفاء؟ لكنّها لم تخطر لي على بال أبدا.. صحيح أنّها شابّة جميلة ورصينة إلاّ أنّني لا أفكّر الآن في الزّواج..

- أنا لم أقلْ لك تزوّج غدا.. كلّ ما سنفعله هو إعلان خطبتكما حتّى تتمكّن أنت من توفير المال الكافي لتجهيز ما يلزم العرس والبيت وما إلى ذلك..

- لكنّ هذا صعب جدّا.. بل مستحيل..

- لِمَ تقول أنّه مستحيل؟.. أنا أريد أن أفرح وأراك أبا لأسرة سعيدة وأطمئنّ عليك قبل أن يوافيني الأجل..

- أبعد الله عنك كلّ شرّ يا أمّاه.. لا تقولي هذا الكلام مرّة أخرى أرجوك.. تعرفين أنّني لا أملك غيركِ في هذه الدّنيا لكنّ ما تطلبينه منّي مستحيل.. لأنّني لن أقبل بمنصب موظّف في شركة بسيطة.. هذا لا يلبّي طموحي.. لا تغضبي منّي أرجوك.. إن كنتِ تحبّينني فعلا اتركيني أتصرّف كما يحلو لي.. أنا لم أعد صغيرا يا أمّاه..

قال هذه الكلمات وانصرف إلى غرفته لا يلوي على شيء تاركا والدته في حيرة من أمرها لا تدري ماذا تفعل أمام

عناد ابنها الوحيد الّذي بقي لها بعد وفاة ناظم وزواج فاطمة وجسماء.. كانت تظنّ أنّ مشاكله ستنتهي ببلوغه سنّا يقدر فيها على التّمييز بين الأشياء وهاهي تسيء التّقدير.. إذ أنّ مشاكله ازدادت تعقيدا وأثقلت صدر عائشة المسكينة الّتي لم تذق طعم الرّاحة منذ فترة طويلة..

وفي المقابل كان تفكير عبد الكريم منصبّا في بلاد الغرب.. كان يحلم بالذّهاب إلى بلد أجنبيّ يحقّق فيه كلّ طموحاته ويكوّن فيه مستقبلا رائعا ويعود ظافرا غانما إلى أرض الوطن.. بسيّارة فاخرة.. ورصيد هائل في مصرف من مصارف البلاد.. ويبني لأمّه بيتا أجمل من الّذي باعه والده ويُسكِن زوجته قصرا جميلا ويلبّي لأبنائه كلّ ما يشتهونه ويعوّض كلّ الحرمان الّذي رآه في صباه وفي شبابه.. كان يرى كلّ هذه الأحلام تتحقّق أمامه ثمّ يتبيّن له وهمه فلا يحزن بل يحسّ بأنّ طموحه ليس بعيدا.. وبأنّه اقترب من البداية.. كلّ ما في الأمر أنّ عليه أن يجد عملا مناسبا في بلد مناسب.. وتبدأ المغامرة!

بعد يومين استيقظت الأمّ على صوت طرق عنيف على الباب فنهضت متثاقلة وهي تغالب النّعاس وفتحت للطّارق:

- ما الّذي جاء بك في هذا الوقت المبكّر يا سعيد؟ خيرا إن شاء الله.. هل والداك بخير؟

- اطمئنّي يا خالة.. أنا آسف على الإزعاج لكنّني أريد محادثة عبد الكريم في أمر مهمّ لا يحتمل التّأجيل..

فأجابته عائشة في حسرة وفتور:

- هو في غرفته نائم منذ يومين.. لا أكل ولا شرب.. لا أظنّ أنّه سيسمعك مهما كانت درجة أهمّيّة الموضوع.. لكن على كلّ حال تفضّل.. البيت بيتك.. حاول أرجوك أن تقنعه بأن يعمل ولو قليلا على بناء مستقبله.. إنّي جِدُّ خائفة عليه.. أنت صديقه الوحيد ومن المؤكّد أنّك لن تبخل عليه بالنّصيحة..

- لا تخشيْ شيئا يا خالة.. عبد الكريم شابّ عاقل.. سأحاول أن أفعل ما طلبتِ منّي.. بعد إذنك سأذهب لإيقاظه..

طرق الباب فأتاه صوت عبد الكريم وكأنّه ينطلق من عمق بئر:

- من؟

- أنا سعيد افتح يا سِمْسِمْ..

أدار عبد الكريم المفتاح في القفل وفتح الباب قائلا بامتعاض:

- هو أنت كالعادة بمزاحك الثّقيل؟

- ما أطول "صباح الخير" في قاموسكَ..

- اعفني من ظُرْفِكَ وقلْ لي ما الّذي جاء بك على السّاعة السّابعة صباحا..

- جئتُ لأوقظكَ..

- وها أنا كما ترى مستيقظ.. قد أتممت مهمّتك فاغرب عن وجهي..

- غريب..

- وما يزيد الأمر غرابة أنّني مستيقظ منذ يومين.. أي منذ أن عدتُ من بيتك..

- ليس هذا ما أستغربه.. الغريب هو أنّك جالس في البيت وأنا أبحث لكَ عن شغل..

- كفاك هراء أرجوكَ.. أنا لا أريد أن أعملَ.. كرهت هذا الموضوع.. إن كانت أمّي من أرسلتك لتقنعني بحكايتها فقُلْ لَهَا أنّك فشلتَ في ذلك.. قلْ لها إنّني لن أعمل أبدا..

- حتّى في نيويورك؟

- ماذا؟ ما الّذي أصابك اليوم.. هل أنت في وعيكَ؟

- أجبْني.. حتّى في نيويورك؟

- ...؟!

- قد أصررتُ على ألاّ أردّك خائبا يوم طلبتَ معونتي.. فاتّصلتُ بصديق لي هو في الحقيقة ابن صديق والدي.. لم أكن

على اتّصال دائم به.. لكنّني لأجلك جعلته وسيطا بينك وبين مشغّلك..

- ماذا تقول؟ لم أعد أميّز بين جدّك وهزلك يا سعيد.. هل أنت جادّ؟..

- طبعا.. قد سألني عن مؤهّلاتك.. فقدّمتُ له كلّ التّفاصيل.. وأخبرته عن مستواك الدّراسيّ وعن وضعك الاجتماعيّ.. ومنذ قليل أعلمني بقرار الموافقة على تشغيلك..

- لكن.. أين سأعيش هناك وكيف؟

- لا تقلق.. سيرتّب لك مشغّلك كلّ شيء.. سيرسل لك شهادة إقامة وبقيّة التّرتيبات..

- لكن.. ثمن السّفر..

- إلى هنا تنتهي مهمّتي.. لديك مهلة نصف شهر.. رتّب أمورك وقل لي.. أنتَ في حاجة فقط لثمن التّذكرة.. مصاريفك هناك مضمونة..

وغادر سعيد بيت عبد الكريم تاركا الشّابّ في حيرة من أمره.. لا يدري ما يفعل.. كيف سيتصرّف؟ إنّها فرصة العمر الّتي لا يجب أن تضيع.. لكن من أين له أن يأتي بالمال؟ من سيقرضه مبلغا ضخما يكفيه لولوج الثّروة والرّفاه وتحقيق الأحلام من أوسع باب؟.. أخواله.. أعمامه.. جدّه.. أمّه.. لكنّ هذا لا يكفي.. أحسّ عبد الكريم في تلك اللّحظة بمزيج من السّعادة والحزن يغمره.. سعادة بقرب تحقيق طموحه وحزن لأنّه صار شبيها بالعطشان المكبّل بالقيود الجالس أمام العين والمحروم من شرب الماء.. صار حلمه قريب التّحقيق صعب المنال.. كلّ ما يطلبه الآن مال.. للسّفرْ!

فتح الخزانة كالمجنون.. جذب من أحد أدراجها سترته الحمراء وبنطلونه الـ"جينز".. غيّر ثيابه بسرعة وهرول إلى باب الغرفة يفتحه ويهمّ بالخروج.. لكن إلى أين؟ كلّ المنافذ مسدودة.. أبواب نيويورك مازالت مغلقة.. ولن يفتحها إلاّ المال.. ثمن التّذكرة.. هل من المعقول أن يرتبط مصير إنسان

ومستقبله بثمن تذكرة؟ ولم لا؟ خاصّة إنسان مثل عبد الكريم يعيش مع أمّه بقسط من النّقود لا يكفي حتّى لتسديد ثمن الطّعام الّذي يقتاتان به.. والأمّ تشتغل ليلا نهارا على آلة الخياطة حتّى تستطيع توفير بعض المال لتضيفه إلى ما كان يصلها من عند أخويها من بغداد.. ولولا هذا لماتا جوعا أو لتسوّلا في الشّوارع.. هل من الممكن أن يسافر إلى بغداد ليطلب من خاليه كاظم وجاسم أن يقرضاه بعض المال؟ «لكنّ مصاريفهما هناك كثيرة وليس من الحكمة في شيء أن نثقل على كاهلهما أكثر من ذلك خاصّة وأنّهما يبعثان لنا أوّل كلّ شهر ما يكفينا.. جدّي؟ لا مجال.. من إذن؟ تبّا لهذه الدّنيا العنيدة الّتي تمنحني وتحرمني في آن واحد ! ».

جالت كلّ هذه الأفكار بخاطر عبد الكريم قبل أن يقرّر مصارحة والدته بالحقيقة علّه يجد عندها بعض المساعدة.. غادر غرفته فوجد أمّه جالسة كعادتها أمام آلة الخياطة تفصّل قطعة من القماش بيضاء اللّون بين يديها.. وما إن رأته حتّى نهضت من مجلسها فرحا وقالت له:

- أخيرا يا ولدي.. خرجت من غرفتك.. قد عرفتُ أنّ سعيدا ابن حلال وهو الوحيد القادر على إخراجك من أزماتك..

- أجل.. سعيد هو من أخرجني من أزمتي..

- وكيف قدر على فعل ما لم أقدر أنا أمّك على فعله؟

- عثر لي على شغل..

- الحمد لله.. أخيرا ستعمل وتبني مستقبلك؟.. أشكرك يا ربّي.. لقد استجبت لدعائي.. غدا نذهب معا إلى بغداد لأخطب لك صفاء.. أتمنّى أن أراك قبل توديع الدّنيا عريسا جالسا وبجانبك عروسك وهي مرتدية فستانا أبيض من صنع يدي كالّذي أخيطه الآن لابنة الحاجّ عمر..

- رويدك يا أمّاه.. رويدك.. ليس هذا ما أفكّر فيه الآن..

- فيم تفكّر إذن؟ ألم يعجبك العمل الّذي عثر عليه سعيد؟

- ألن تسأليني أوّلا أين وماذا سأعمل؟
- لا يهمّ مادام عملا شريفا ويجلب الرّزق الحلال..
- إذن فلتعلمي أنّني مسافر..
- إلى العاصمة؟
- بل إلى نيويورك..
- أليست هذه..
- نعم.. بلاد أمريكية..

تهالكت عائشة على الكرسيّ كمنْ سقط على كاهله حمْل الحياة كلّها وهمومها.. اصفرّ وجهها واحمرّت عيناها وملأت الدّموع مآقيها ونزلت مدرارا على خدّيها وأخذت تلهج في صمت.. فزِع عبد الكريم لمرأى أمّه على تلك الحالة فضمّها إلى صدره وقال لها في حسرة:

- لا داعي للبكاء يا أمّاه.. أنا لن أقدِر على السّفر لأنّني لا أملك ثمن تذكرة الطّائرة الّتي ستأخذني إلى هناك.. اطمئنّي.. أنا سأظلّ هنا وأُدفن هنا بالحياة..
- لا تقل هذا يا ولدي.. وطنك كذلك عزيز عليكَ وغالٍ فلِمَ الغربة وأنتَ ما تزال صغيرا والعمر أمامكَ؟
- إنّها الفرصة الوحيدة الّتي لن تتكرّر في الحياة يا أمّي.. يجب أن أحصل على ثمن التّذكرة قبل مرور نصف شهر من اليوم..
- إذن فقد قرّرت أن تُسافر وتتركني يا عبد الكريم؟
- أنا سأسافر لكنّني لن أتركِكِ.. سأتّصل بكِ دائما وسأوصي سعيدا وعائلته خيرا بكِ..
- أنا خائفة عليكَ يا ولدي.. يخيّل لي أنّني لن أراكَ مرّة أخرى إن سافرتَ..
- تفاءلي يا أمّي.. لن أجد هناك وحوشا في انتظاري..
- بلى.. هناك وحوش آدميّة لن يتركوك في حال سبيلكَ.. ستجد هناك عادات غير عاداتنا وحياةً غير حياتنا

وأُناسًا آخرين لا نمتُّ لهم بأيّة صلة.. بل على العكس.. ستذهب إلى الأعداء برجليْكَ..

- ومالي أنا والسّياسة يا أمّاه؟.. أنا لن أعمل هناك سفيرا ولا وزيرا..

- ما دمتَ لن تحتلّ منصبا مهمّا فلِمَ التّعب؟ بلدكَ أولى بكَ..

- كلاّ.. كلاّ.. أ تعرفين؟ غاسل صحون هناك يتقاضى مرتّبا أعلى من مرتّب موظّف هنا.. لِمَ لا تُريدين تفهّمي؟..

- هل ستعمل غاسل صحون؟

- لا يهمّ.. حتّى وإنْ طلبوا منّي مسح بلّور السّيّارات.. المهمّ أنْ..

- المهمّ ألا تعمل في بلدكَ.. أليْسَ كذلك؟ هل تفضّل أكل لقمة باردة مغمّسة بالذّلّ والهوان هناك في بلاد الغربة على أنْ تأكل لقمة ساخنة مغمّسة بالعزّ والكرامة هنا في وطنكَ وبين أهلكَ وعشيرتكَ؟

- أهلي وعشيرتي لن يعينوني في بناء مستقبلي الّذي أحلم به واللّقمة الباردة هناك أكبر بكثير من اللّقمة السّاخنة الّتي سأجدها هنا.. يجب أن أتحمّل الذّلّ والهوان قليلا حتّى أحقّق طموحي..

- لا فائدة تُرْجى من الحديث معكَ.. أنتَ عنيد منذ صغركَ.. كأنّك لست ابني الّذي حملته تسعة أشهر في بطني وأرضعته عامين من صدري وربّيته أكثر من عشرين سنة على القناعة والكرامة والطّاعة.. صرتَ شخصا آخر لا أعرفه البتّة.. صِرتَ غريبا.. قد تغيّرت كثيرا يا عبد الكريم.. صرتَ إنسانا انتهازيّا طمّاعا لا تهمّك قيم ولا مبادئ في سبيل الوصول إلى مصلحتكَ..

- أ تعرفين ما الّذي غيّرني؟ فكّرت طويلا ووجدتُ أنّ القيم الّتي تربّيتُ عليها لم تعدْ اليوم تنفع في شيء.. القناعة صارت ضعفا والكرامة صارت قيمة واهية يُضيع بها الأبله

فُرَصَهُ في الحياة والطّاعةُ صارت خضوعا وقتلا للإرادة.. كي نعيش اليوم يجب أن ننتهز كلّ فرْصة ونرمي بكلّ هذه العوائق النّظريّة عرض الحائط وإلاّ فسنظلّ أسيري الرّضا والكبرياء والتّسليم ونقف مكبّلي الأيدي بأغلال قيم ومعانٍ مرّ عليها الزّمان وأكل الدّهر عليها وشرب.. سنظلّ مسجونينَ في الماضي نعيشه بدل الحاضر ولا نفكّر في مستقبل..

- خسارة.. متى انقلب عقلك؟ كنتُ أظنّ أنّني أفهمكَ.. واتّضح لي أنّني كنتُ بلهاء..

-لا تقولي هذا الكلام يا أمّاه.. أنا لم أقصدْ من حديثي عصيان أمركِ أو التّمرّد على رغبتكِ.. كلّ القيم من الممكن إلغاؤها إلاّ البرّ بالوالديْن.. أنا لا أملك غيركِ في الدّنيا ولولاكِ لمَا كنتُ الآن موجودًا.. إن أردتِ أن أبقى معكِ هنا فلنْ أمانع أبدا.. لكنّني سأفعل ذلك تلبية لرغبتكِ أنتِ فقط.. وسأضطرّ آنذاك للتضحيّة بطموحي!

- لا يا عبد الكريم! ليس هذا ما أطلب منكَ فِعْلَه أبدًا! أنا لا أريدكَ أن تضحّي بطموحكَ ولا بمستقبلكَ لأجْلي.. أنا أطلب منكَ فقط أن تحكّم عقلكَ جيّدا وأن تتروّى في التّفكير قليلاً.. إنّ الخطوة الّتي ستقدِم عليها هي حجَر الأساس الّذي ستقام عليه بناية حياتكِ القادمة فإن لم يكُنْ هذا الحجر صلبا ومتينا فستتعرّض حياتك كلّها للانهيار في طرفة عين ولا شيء أسهل في هذه الدّنيا من الانهيار.. ما يُبْنى في سنين يمكن أن ينهار في ثوانٍ.. تذكّر كلامي هذا دائما يا ولدي وضَعْهُ نُصبَ عيْنيْكَ.. ربّما نفعكَ غدًا..

- حكيمة والله يا أمّاه.. لكنْ هل أفهم من كلامكِ أنّكِ موافقة على رحيلي؟

- قد نصحتك وفعلتُ ما في وسعي لأثنيك عن عزمك.. أنا لا تهمّني سوى مصلحتكَ وسعادتكَ ولا أريد أن أقف حجر عثرة في طريق طُمُوحكَ أوْ مستقبلكَ فافعلْ ما تشاء وما يحلو لكَ!..

- شكرا لكِ يا أمّاه.. أنا لن أنسى أبدًا ما فعلتِهِ من أجلي وأقسم لكِ أنّني سأعوّضكِ عن كلّ شيء خيرًا.. عن كلّ دمعة ذرفتها لأجلي.. عن كلّ دقيقة سهرتِها لأجلي.. عن كلّ ألم عانيتِه لأجلي.. فقط أريد ثمن التّذكرة!

الفصل الثّالث

لبس حذاءه وأخذ المفاتيح وغادر البيت إلى خاليْه في العاصمة ممنّيا النّفس بثمن التّذكرة من عندهما مثلما أشارت عليه أمّه.. لم يكنْ هناك حلّ غيْر هذا.. لا يمكن أن يبخل عليه خاله كاظم ببعض النّقود يبدأ بها مشواره ولا خاله جاسم كذلك.. إنّهما ثريّان مقارنة بحال عائشة الّتي كانت تودّ أن تعيش فقيرة بكرامتها ولم تقبل إلاّ أن يسدّد شقيقاها مصاريف دراسة عبد الكريم هناك في بغداد.. كان خاله كاظم يعمل طبيب أطفال بمستشفى بالعاصمة في حين كان خاله جاسم يعمل مهندسا معماريّا بإحدى شركات المقاولات.. كما أنّ المبلغ المطلوب زهيد ولا يمكن أن يثقل كاهل الخالين بالنّظر لما كانا يتقاضيانه من مرتّب..

هذا ما كان يجول بخاطر الشّابّ المسكين طوال رحلته إلى بغداد.. وما إن وصل حتّى اتّجه رأسا إلى بيت خاله جاسم.. صعد السّلالم وطرق باب شقّته مرّة ومرّة ومرّة.. اليوم جمعة هل من المعقول أن يكون في الشّغل؟ وما إن همّ بمغادرة المكان حتّى فتحت الجارة باب شقّتها متسائلة:

- هل من خدمة يا ولدي؟

- جئتُ لأرى السّيّد جاسم حسن لكن من الواضح أنّه غير موجود..

- هل تريد مقابلته لأمر مهمّ؟

- أمر مهمّ جدّا.. مسألة حياة أو موت..

- يا لطيف! هل جرى لابنته شيء؟..

- ماذا؟

- أقصد.. من أنت؟ هل أنت صديقه؟

- لا.. ابن أخته.. من فضلك هل تعرفين أين يمكن أن أجده؟

- أجل.. أرجّح أنّه الآن في المستشفى..

- مستشفى!

- لا تخف عليه! ابنته المسكينة صدمتها البارحة سيّارة..

- مريم؟ يا إلهي.. شكرا لكِ يا خالة..

لم يدْرِ كيف نزل تلك السّلالم.. كان مشهد ابنة خاله وخوفه عليها في عينه اليمنى وأمله الّذي أخذ يضعف في الحصول على المال في عينه اليسرى.. أوصلته سيّارة الأجرة إلى المستشفى.. دخل راكضا باحثا عن خاله حتّى عثر عليه جالسا على أحد الكراسيّ وكأنّ على رأسه الطّير.. مصفرّ الوجه.. شاحب الملامح.. مهموما.. فاقترب منه وربّت على كتفه قائلا: « كيف حالك يا خالي؟» فرفع جاسم عينيه وعقد حاجبيه محاولا التّدقيق في ملامح الشّخص الواقف أمامه ثمّ ارتمى في حضن عبد الكريم قائلا بنبرة يكتنفها الضّعف والفرحة معا:

« عبد الكريم؟ كيف حالكَ وحال عائشة يا ولدي ؟ لم نركما منذ ستّة أشهر يا بنيّ.. قد كبرتَ وصرتَ رجلا ما شاء الله..»

قال هذا الكلام ثمّ تمعّن قليلا في وجه عبد الكريم فوجده شاحب اللّون فأضاف مستغربا:

- ماذا تفعل هنا؟ ما الّذي أتى بك؟ ما لوجهكَ شاحب ولعينيك حمراوين؟.. هل جرى لأمّك شيء؟

- لا.. لا يا خالي اطمئنّ.. أمّي بخير وتقرؤك السّلام..

- الحمد لله.. لكنْ لم تجبْني.. ما الّذي أتى بكَ إلى هنا؟

- طمئنّي أنت أوّلا.. كيف حال مريم؟ هل هي بخير؟

- مريم؟ نزيف داخلي وعمليّة جراحيّة.. لكنْ الحمد لله.. يقول الأطبّاء أنّها ستفيق حتما من الغيبوبة وستعود إلى حالتها الطّبيعيّة غدا أو بعده على الأرجح.. أتعرف؟ لم أذق طعم الأكل ولا النّوم منذ البارحة.. أحسّ أنّني في دوّامة ولا أطلب

من الله الآن إلاّ سلامة ابنتي الوحيدة.. قلْ لي إذن ما الّذي أتى بكَ إلى بغداد وإلى المستشفى؟

- أنا؟ كـ.. كانت عندي بعض الأوراق.. مررتُ لاستلامها من الجامعة.. أردتُ أن أراك وكأنّ قلبي كان دليلي..عندما وصلتُ إلى بيتك أخبرتني جارتكم أنّك هنا فهرولتُ إليكَ.. هل اطمأنّ قلبكَ الآن؟

- أجل.. لكن أرجوك لا تعلم أمّك بحالة مريم.. ستكلّف نفسها عناء المجيء إلى هنا وهي كما أعرفها لا تحتمل مشقّة السّفر.. ومريم الحمد لله ستصير بخير.. فلا داعي لإزعاج عائشة.. تكفيها همومها..

- لا تخش شيئا يا خالي.. هل يمكنني أن ألقي نظرة على مريم؟

- للأسف.. الزّيارة ممنوعة حتّى المساء على الأقلّ..

- حسنا إذن.. أرجوك بلّغها تحيّاتي حين تستفيق..

- هل ستذهب بهذه السّرعة؟

- يجب أن أعود إلى القرية قبل حلول الظّلام.. تركتُ أمّي لوحدها في البيت.. مازالت أمامي أشغال أخرى يجب عليّ إتمامها قبل عودتي.. وربّما زرت خالي كاظم.. بالمناسبة، هل أعلمته بما حدث لمريم؟

- كلاّ.. لم أعلمه حتّى الآن.. إن ذهبت لزيارته فلا تخبره بشيء.. سأفعل ذلك بنفسي فيما بعد..

- أمرك يا خالي.. أتمنّى لمريم الشّفاء العاجل.. ربّما حاولتُ الاتّصال بكَ من القرية قريبا حتّى أطمئنّ عليها.. أستودعك الله..

- إلى اللّقاء يا عبد الكريم.. بلّغ سلامي الحارّ إلى أمّك وأختيكَ..

وهكذا غادر عبد الكريم المستشفى بيدين فارغتين وخاطر مشغول.. كان لا يعرف لحالته تفسيرا.. هل يفرح لأنّ خاله وجد النّقود حين أراد لابنته أن تجري العمليّة.. أم يحزن

لأنّ المال الّذي كان يطمع في الحصول عليه قد بخّرته حادثة الفتاة الصّغيرة؟ هل يفرح لأنّ ابنة خاله أجرت العمليّة ونجت من الموت أم يتحسّر لأنّ الزّمان قد سبقه كعادته وخطف اللّقمة من فمه؟ «لو عثر سعيد على الشّغل بالأمس لكانت النّقود من نصيبي الآن ولربّما كنتُ الآن في نيويورك! ولكنّ خالي كان سيحتاج إلى هذه النّقود أكثر منّي.. حياة ابنته الوحيدة.. ولو أجّلتُ أنا سفري مثلا لوُضع خالي في موقف حرج بين حياة ابنته وماله الّذي لن يقدر بحكم أخلاقه على استرجاعه منّي بعد أن خطّطتُ لبناء مستقبلي ولوقفتُ أنا كذلك في ذات الموضع.. مستقبلي في كفّة وحياة ابنة خالي في كفّة أخرى.. لا مجال للحسرة.. يجب أن أحمد الله على أنّ كلّ الأمور سارت على هاته الشّاكلة.. وأحمدُ الله على سلامة مريم.. ونِعْمَ ما فعلتُ حينما لم أخبره بالسّبب الحقيقيّ لزيارتي.. أنا أعرف أنّه حسّاس وأنّه ربّما سيعاتب نفسه حتّى وإن لم يكنْ مذنبا في شيء وحالته لا تسمح له بأكثر ممّا يعانيه وجميله يسترنا ويغطّينا طوال عمرنا.. لن نكافئه بالشّرّ.. هاهي قيمكِ الّتي غرستها فيّ لم تُنْزع يا أمّاه.. مازلتُ أحتفظ ببعض الخصال الّتي أحتاجها أحيانا.. وعلى كلّ حال مازالت أمامي فرصة وحيدة هي خالي كاظم! »

نزل من الحافلة واتّجه إلى البناية الّتي كان خاله يسكن فيها منذ عشر سنوات تقريبا.. صعد السّلالم حتّى وصل إلى الطّابق الثّالث.. كان وجهه يتصبّب عرقا وحلقه جافّا..ضغط على زرّ الجرس.. وما هي إلاّ هنيهة حتّى فتحت سيّدة عجوز الباب قائلة:

- هل من خدمة يا ابني؟
- عفوا! هل أنت والدة أمّ صابر زوجة خالي؟
- أمّ صابر؟ زوجة خالكَ؟ عمّ تتحدّث يا ولدي؟
- أليست هذه شقّة السّيّد كاظم حسن؟
- آه! تقصد المالك السّابق للشّقّة؟

- مالك سابق؟
- أجل لقد انتقل منذ شهر تقريبا إلى بيته الجديد..
- لو سمحتِ.. هل تعرفين عنوانه؟

* * *

أخذ طول الطّريق يحدّق في الورقة الّتي دوّن عليها العنوان.. إنّها منطقة فخمة.. متى اقتنى الخال ذلك المنزل؟.. منذ ستّة أشهر حين كان عبد الكريم يدرس في بغداد وحين كان يزور خاله بين الفترة والأخرى.. لم يدُرْ حديث قطّ في بيته حول هذه القصّة.. هل حصل هذا بين عشيّة وضحاها؟ ولِمَ لمْ يعْلمه خاله جاسم بالأمر؟ ربّما نسي ذلك إذ كان في حالة يرثى لها.. أعانه الله على ما أصاب ابنته! لم يكن عبد الكريم يفهم سبب كلّ تلك العراقيل الّتي تضعها الأقدار في طريق سيره لكنّ الأهمّ بالنّسبة إليه يظلّ الحصول على المبلغ بأيّة وسيلة..

وصل إلى منطقة تغمرها منازل فخمة تنمّ عن ثراء وبذخ وترف عيش.. «أين نحن من هذا يا أمّاه؟» قال عبد الكريم في نفسه متحسّرا«لكنّني سأشيّد لكِ قصرا أروع من كلّ هذه المنازل على فخامتها حين أعود من نيويورك إن شاء الله..» وقف أمام باب حديديّ مكتوب عليه بخطّ عربيّ غليظ (فيلاّ الدّكتور كاظم حسن).. كانت حقّا فيلاّ رائعة وبسيطة في آن معا.. تنمّ عن ذوق رفيع وخبرة بالتّصميم.. وبينما هو واقف إذ بالباب يُفْتح فجأة ويظهر من خلفه شابّ بهيّ الطّلعة يرتدي قبّعة وتبّانا أبيض وصدارا أسود وبيده أدوات كرة المضرب.. فرح الشّاب لمرأى عبد الكريم وارتمى في حضنه قائلا:

«مرحبا.. أهلا وسهلا بابن عمّتي.. كيف حالكَ يا عبد الكريم؟ تفضّل.. أُدخل.. أبي! أمّي! إنّه عبد الكريم ابن عمّتي عائشة..» .

جذب صابر عبد الكريم من يده وأدخله بهوا فسيحا تتوسّط سقفه ثريّا كبيرة.. أرضيّته لامعة وأثاثه فاخر.. كان يأخذه من يده ويشقّ به ذلك البهو متّجها نحو فضاء يطلّ على مسبح صغير أين جلس الخال وزوجته وكانا بصدد تناول بعض الفواكه.. وما إن رآه السّيّد كاظم حتّى رحّب به وأجلسه بجانبه وطلب من زوجته أن تعدّ لهما عصير ليمون طازج..

- مرحبا بولدي العزيز.. كيف عرفت العنوان؟

- صاحبة شقّتك القديمة قد أعطتني إيّاه.. مبارك عليك الفيلاّ..

- شكرا لكَ.. أتعرف؟ رغم بساطتها فقد كلّفتني الكثير.. كلّفتني ثمن الشّقّة القديمة وكلّ ما كنتُ أحتفظ به من نقود أنا وزوجتي.. وهاهي كما ترى ما تزال غير مكتملة بعد..

قال هذا مشيرا ببنانه إلى حائط آجريّ لم يُدْهَن بعدُ.. نظر عبد الكريم إلى حيث أشار خاله وطأطأ رأسه صامتا، مدركا أن لا فائدة تُرجى من الإفصاح عن مطلبه..

ومرّت الدّقائق بطيئة.. أخذ عبد الكريم يستمع فيها لثرثرة خاله وقهقهاته بين الفينة والأخرى بأذن صمّاء وفكر مشغول.. نظر بعدها إلى ساعته وقال مستأذنا..

-لقد حان وقت الذّهاب.. يجب عليّ أن أعود إلى القرية قبل أن يُنزِل اللّيل ستاره..

- مازال الوقت مبكّرا.. ألن تتغدّى معنا؟

- لا.. بالشّفاء والهناء.. لن أستطيع أبدا..

طبعا وكيف له أن يأكل لقمة واحدة وقد سدّت الصّدمة شهيّته.. يا لتعاسة الحظّ! خاله كاظم كذلك عبّر له من دون أن يشعر عن عدم قدرته على مساعدته.. منزله الجديد قد أكل كلّ أمواله..

وهكذا غادر عبد الكريم بيت خاله مختنقا تصدّه فكرة وتردّه أخرى.. ماذا عليه أن يفعل؟ ألن يقتني التّذكرة أم أنّه سيقف للتّسوّل على قارعة الطّريق حتّى يحصل على ثمنها؟

حلاّن غير مجديين لوضعه ذاك فما الحلّ إذن؟ أُناس تبني المنازل وتنفق عليها أموالا طائلة وآخرون يتسوّلون مبلغا بسيطا يتوقّف عليه المستقبل فلا يجدون.. ما العمل؟ هل سيعود إلى أمّه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها؟ هل سيقول لها «سُدّت كلّ المنافذ في وجهي؟» من بقي له من العائلة؟.. كلّ من بقوا لا يقدرون حتّى على إعالة أنفسهم.. خالته خديجة تعاني الأمرّين من بخل زوجها وخالاه محمّد وأحمد كان الله في عونهما.. عائلاتهما كبيرة وأولادهما كُثر وزوجتاهما لا تعملان.. ربّما كانا هما الآخران في حاجة إلى المساعدة!

فتح باب المنزل فوجد أمّه في انتظاره على أحرّ من الجمر:

- ماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئا!

- كيف؟ ألم تزر خاليك؟

- بلى!

- هل رفضا مساعدتك؟ غير معقول!

- لا لم يرفضا.. ولكنّ ظروفهما لم تكنْ تسمح حتّى بطلب المساعدة..

- ظروفهما؟ ماذا تقصد يا ولدي؟ لقد حيّرتني..

- خالي جاسم.. ابنته.. ابنته.. أقصد..

ونطّت في ذاكرته صورة خاله وهو يطلب منه ألاّ يُعْلِم أمّه بالأمر فتلعثم وعضّ شفته العليا باحثا عن أكذوبة مناسبة تنجيه من الوقف الحرج الّذي أوقعه فيه لسانه ظاهريّا وحنقه وغيضه باطنيّا وتُقنع أمّه الّتي أخذ الشّكّ والقلق يراودانها حتّى صرخت فيه منزعجة:

- ما بها مريم؟ تكلّم..

- كـ.. كبرت ومصاريف دراستها زادت.. أخذ يشكوني همّ مصاريفها فخجلت من طلب ما ذهبتُ لأجله..

وعندها تنفّست عائشة الصّعداء وكأنّ قلبها كان يتوقّع حدوث خطر ما لكنّ لهجتها تغيّرت من الفزع إلى الاطمئنان –وإن نمّت في بعض نبراتها عن عدم اقتناع لما بدا على ابنها من الاضطراب- حينما أتمّت حوارها مع عبد الكريم متغاضية عن التّفكير فيما إذا كان صادقا أو كاذبا وكأنّها اختارت طمأنة قلبها حتّى وإن كان ابنها يداري حقيقة مرّة:

- وخالكَ كاظم..

- قد انتقل إلى بيت جديد كلّفه بناؤه أموالا طائلة..

- وما العمل إذن؟

- لا أعرف يا أمّاه.. إنّها حقّا مشكلة!.. هل من المعقول أن نقف صامتين ومشلولين أمام أوّل مشكلة ماديّة تعترضنا؟

- ليس المبلغ الّذي تطلبه هيّنا يا عبد الكريم وإلاّ لكُنّا حصلنا عليه بسهولة..

- أعلم أنّ المبلغ كبير عِلمي بأنّنا فقراء..

- الفقر فقر الرّوح يا ولدي وليس فقر الجيب..

- أرجوك كفى قيما ومبادئ لم تطعمنا ولم تغنِنا عن الحاجة.. لو كانت قيمكِ هذه تنفع لصرنا الآن أغنى الأغنياء لكنّنا الآن أفقر من الفقر.. ليتك استغنيت عنها فيما مضى وتزوّجت رجلا ثريّا لَعِشْنا الآن في هناء بدَل إخلاصك لوالدي إخلاصا لم يُسْمِنَّا و لا أغنانا من جوع..

- أهذا جزائي حين اخترت التّضحية بكلّ شيء من أجلكم؟ أ هكذا أكافئ حين أخلصت لوالدكَ ولم أرض لكم بعده رجلا؟ ما الّذي يضمن لي أنّ هذا الثّريّ الّذي تتحدّث عنه لن يعاملكم أسوأ معاملة؟ آنذاك كنتُ سأبكي على شقائكم دموع دم عوض دموع الفرح الّتي أذرف وأنا أراكم تكبرون في سلام وأمان وسِتْرٍ.. هل احتجْتَ يوما إلى شيء ورددتُكَ خائبا؟ هل طلبتَ منّي يوما أكلا أو لباسا ولم أجلبه لكَ؟ واجهني.. قلْ لي صراحة.. هل قصّرت يوما معكَ أو مع أشقّائكَ؟

كانت تتكلّم والدّموع تنزل مدرارا على خدّيها حزنا وأسفا.. ما كانت أبدا لتتخيّل الكلام الّذي قاله لها ولدها.. وأدرك عبد الكريم مقدار أذيّته لوالدته وتملّكه من النّدم أقساه ومن الرّبكة أقصاها جرّاء ما نفث لسانه من حماقات وانكفأ يقبّل يديها وجبينها قائلا بأسف:

- لا تبكِ يا أمّي أرجوك.. أنا لم أقصد البتّة إيلامك بكلامي هذا.. أنا غبيّ وأنت تعرفين جيّدا مدى البلاهة الّتي أصير إليها حينما أغضب.. اعتبريني مازلت صغيرا وارتكبتُ خطأ جسيما فاصفحي عنّي أرجوك كما تعوّدت أن تفعلي منذ أكثر من عشرين سنة..

- أنا لا أغضب منكَ أبدا.. أنت الوحيد الّذي بقيت لي في الدّنيا لذلك فأنا خائفة عليكَ من الكلام الّذي كنتَ تقوله.. أخاف أن تجد نفسك يوما كالغراب الّذي أراد أن يتعلّم مشية الطّاووس فلم يستطع ونسي مشيته.. بدون قيم لا يستطيع المرء أن يعيش يا ولدي.. افهم هذا بالله عليك.. لقد حزنتُ فقط لأنّني لم أجد عبد الكريم الّذي أعرفه والّذي ربّيته وسهرت لأجله اللّيالي حتّى أغرس فيه مُثُلِي ومبادئي..

- لا تخشيْ شيئا يا أمّاه.. كلّ ما قُلته كان نتيجة انفعالي وعودتي بعد يوم كامل من المشقّة بخفّي حنين.. لم يكنْ نابعا من قلبي.. لعنة الله على هذا السّفر المشؤوم الّذي جعل أمّي العزيزة تذرف الدّموع.. أنا لن أسافر.. قد كرهت هذه الرّحلة قبل أن أبدأها.. اطمئنّي.. لن أبتعد عنكِ..

- وهل ستعمل موظّفا كما قلتُ لكَ.. وتتزوّج صفاء؟

قطّب جبينه وأدار وجهه وانتابه الكدر ثمّ قال محاولا إرضاءها: «سأفكّر! » ..

لكنّ عبد الكريم لن يفكّر إلاّ في نيويورك.. لقد تعوّد منذ صغره على تنفيذ كلّ ما يفكّر فيه مهما كلّفه الأمر! لقد قال لها أنّه لن يسافر ولن يتركها فقط ليطمئنها في تلك اللّحظة.. لكنّ

ما كان يجول بخاطره في ذلك الوقت كان الوسيلة الّتي يتحصّل بها على ثمن التّذكرة..

وأشرقت شمس صباح اليوم الثّاني والثّالث.. ومرّت الأيّام وعبد الكريم يسعى حثيثا لجمع المبلغ ولم ينفع شيء.. وبقيت تسعة أيّام على الموعد وأخذ اليأس يراود الشّاب المسكين حتّى نَحُل جسمه وذَبُلت ملامحه وصار في حالة يرثى لها وما من منقذ!

وبينما كان جالسا ذات صباح على فراش غرفته ينتظر فرجا لكربته إذ بوالدته تفتح الباب وتدخل وتجلس أمامه قائلة في صوت الرّاضي بقدره: «أنا أعرف سبب همّك وسبب خروجك كلّ يوم صباحا وعودتك مساء.. أنت تبحث بكلّ جهدكَ عن طريقة تجمع بها المبلغ فلا تجد.. أنتَ تريد السّفر وقولك لي في المرّة الفارطة أنّك لن تسافر وأنّك كرهت الرّحلة قبل أن تبدأ لم أصدّقه يومها وكنتُ على يقين بأنّك كنت تقول ذلك الكلام فقط لإرضائي آنذاك وأنّ قرار سفركَ لن يمنعك عنه شيء ما عدا ثمن التّذكرة! وأنّك إن لزم الأمر ستدوس على مبادئك حتّى تحصل عليه.. لذلك وتفاديا لما يمكن أن تفعله سأسبقك أنا وأعطيك المبلغ الّذي تريده..»

قالت هذا الكلام ونزعت قلادة من عنقها كانت دائما ترتديها.. بسطت له راحة يده ووضعت القلادة فيها وكأنّها كانت تنتزع قلبها وتضعه في كفّه وهي تقول وفؤادها ينفطر..

« خذ هذه القلادة تصرّف فيها كما تشاء.. ارْهِنْهَا.. بِعْهَا.. المهمّ أن تتحصّل على المبلغ الّذي تريده والّذي يكفيك للسّفر.. كنتُ قد وضعتها منذ اثنتين وعشرين سنة في كفّ والدكَ حين وقع في تلك الأزمة المشؤومة.. يومها قال لي: «لا داعي لأن أبيع مصوغك.. أتركيه معكِ علّكِ تحتاجينه يوما.. ثمّ إنّ قيمته لا تكفي حتّى لسدّ عشر قيمة الدّين..» ومنذ ذلك اليوم صرتُ أحتفظ بهذه القلادة كتذكار لي من أعزّ إنسان عرفته في حياتي.. وها أنا اليوم أضطرّ للتّضحية

بالنّفيس مقابل مستقبلكَ ومقابل أن أراك سعيدا وحتّى لا تفكّر لحظة واحدة في أنّك أقلّ قيمة من النّاس..»

أخذ عبد الكريم القلادة غير مصدّق ما يرى ويسمع.. ثمّ لمع فجأة في عينيه بريق الأمل وارتمى في حضن أمّه يقبّلها والدّموع تسيل على خدّه فرحا.. أخيرا فُتِحَ باب الفرج في وجهه واتّضحت معالم الآتي لباصرتيه.. أخذ ينظر إلى القلادة وقسمات وجهه تنطق بشرا وسعادة وهو يقول لأمّه:

- أشكرك يا أعزّ أمّ في الدّنيا.. لولاكِ ما كنت لأهتدي إلى ما أنا فاعل.. أَعِدُكِ أنّني سأعوّضكِ بدل هذه القلادة حليّا لم ترَ العين أجمل منه ولم يتعطّل جيد به البتّة عندما أعود من نيويورك..

- خسارة! لم تفهم بعدُ معنى الإخلاص.. أنتَ لا تعرف أنّك حتّى وإن جلبتَ لي حليّا من الأحجار الكريمة فإنّه لن يكون جميلا كجمال هذه القلادة الّتي ستبيعها ولو أنّها أقلّ قيمة ماديّا لأنّ جمالها يكمن في أنّها هديّة من أغلى إنسان على قلبي..

لكنّ عبد الكريم لم يكن يسمعها بل كان يحلق ذقنه في بيت الاستحمام استعدادا لجلب ثمن التّذكرة! إنّه لَيوم مشهود بالنّسبة إليه..

وبينما كان يهمّ بمغادرة البيت استوقفته أمّه:

- إلى أين؟

- إلى الجواهري حتّى أتصرّف في القلادة ثمّ سأذهب إلى سعيد حتّى نتمّ معا إجراءات السّفر..

- هكذا؟ دون أن تفكّر في أيّ شيء آخر؟

- فيم أفكّر؟ ماذا تقصدين يا أمّاه؟

- أنا! من سيبقى لي بعدكَ؟ هل ستتركني وحدي؟

- قد عهدتك قويّة يا أمّي.. هل ستضعفين الآن؟

- ...

- فيم حزنكِ هذا؟ هل لديكِ حلّ؟ إن كان لديك حلّ فأنا طوع أمرك..

- يجب أن تتزوّج!..

وقع هذا الخبر على عبد الكريم وقوع الصّاعقة.. لم يكن أبدا ينتظر هذا الكلام.. كيف ذلك؟ عاد أدراجه إلى بهو المنزل أين كانت أمّه جالسة ووقف أمامها وقال مستطلعا ومحاولا إدراك معنى كلامها:

- أنا لا أفهم شيئا.. ما دخلُ زواجي في الموضوع؟

- وماذا تريد أن تفهم؟ ألم تطلبْ منّي حلاّ للمشكلة؟

- كنتِ تطلبين منّي الزّواج حين وجدتِ لي عملا هنا.. كنتُ سأتزوّج وأعمل وأعيش هنا.. لكنّي الآن مسافر بعد أسبوع على الأكثر ولا ينفع تأجيل هذا الموعد.. فكيف ستتمّ مراسم الزّواج في هذا الوقت الضّيّق؟ وهل سأترك زوجتي هنا وأرحل أم سآخذها معي؟ قد عهدتكِ حكيمة يا أمّاه فكيف تطلبين منّي هذا الطّلب الغريب الآن وأنا في أحلك الظّروف؟

- صبرك عليّ يا عبد الكريم.. زواجك لن يكون بزفّة وحفل ومصاريف.. زواجك سيتمّ بعقد قران بسيط بحضور أهل العروس وأهلكَ فقط.. لن تكون هناك مصاريف ولن يأخذ هذا من وقتك أكثر من ليلة واحدة..

- ولِمَ كلّ هذا؟ ما رأيكِ أن نتقدّم الآن لخطبة صفاء ثمّ نتزوّج بعد عودتي من السّفر؟

- لن ينفع.. أرجوك يا ولدي أنت لن تخسر شيئا.. إنّه طلبي الوحيد.. على الأقلّ ستبقى صفاء معي بعد سفرك تؤنس وحدتي وتسلّيني وتساعدني وتخفّف عن والدها قليلا ثقل مصاريفها..

- أنت دائما تفكّرين في غيرك قبل تفكيرك في نفسكِ يا أمّاه.. لكِ ما طلبتِ.. اذهبي اليوم لخطبتها وسيتمّ عقد القران بعد غد.. ما رأيكِ؟

- على بركة الله..

كان عبد الكريم على حقّ حينما قال أنّ والدته كانت تفكّر دائما في غيرها قبل نفسها إذ أنّها لم تكن تريد من كلّ ما طلبته أن تجد من يسلّيها أو يؤنس وحدتها بقدر ما كانت تريد أن تغرس لابنها جذورا في أرض الوطن حتّى يضطرّ في يوم ما للعودة وحتّى يذكر دائما أنّه من العراق وأنّ له فيها أمّا وزوجة..

وخطبت الأمّ صفاء وأعدّ عبد الكريم الأوراق والتّأشيرة وجواز السّفر.. ومساء يوم الاثنين وقفت العروس بفستان الزّفّة بجانب عريسها وعُقِد القران بحضور العائلتين في جوّ ودّي مفعم بالبساطة والطّيبة ونقاء السّريرة.. لم تكن صفاء تحلم بأن تتزوّج عبد الكريم لذلك كانت سعادتها تفوق سعادة كلّ الحاضرين حتّى العريس نفسه.. كانت سعيدة رغم علمها بأنّه سيتركها مع حماتها بعد أيّام مغادرا إلى بلاد الهنود الحمر كما كانت عائشة تسمّيها بل إنّ سفره إلى هناك زاده قيمة وعلّى من شأنه في نظر صفاء المسكينة.. والحال أنّه هو نفسه لا يدري ما ينتظره هناك.. لم تكن صفاء تحلم بأكثر من ذلك.. زواجها من عبد الكريم تخطّى كلّ آمالها وأحلامها رغم أنّها كانت جميلة خَلْقًا وخُلُقًا.. كانت نحيفة.. طويلة القامة.. شعرها أسود فاحم ينساب على كتفيها وعيناها بلون الزّيتون الأخضر.. كما كانت وديعة.. طيّبة القلب.. ودودة.. رصينة ودائمة الابتسامة.. ورغم ذلك لم يتقدّم لطلب يدها أحد حتّى بلغت العشرين من عمرها.. كانت طوال الحفل تحاول جلب انتباه زوجها الّذي كان منشغلا عنها بالحديث مع سعيد عن شؤون السّفر..

ومرّت تلك اللّيلة وبعدها ليال مرور الدّهر على عبد الكريم الّذي كان ينتظر بصبر نافد مُضيّ الوقت ويترقّب بشوق كبير يوم السّفر ويفرح كثيرا كلّما غرُبت شمس يوم مضى معلنا إطلالة يوم جديد تقرّب الشّاب من يومه الموعود.. لم يكن هذا الإحساس الّذي ينتاب عبد الكريم نتيجة

لشعوره بالملل من زوجته بل على العكس إذ كان أشدّ ما ينغّص عليه سعادته بقرب تحقيق أمله كرهه لترك صفاء مدّة لا يعلم إلاّ الله طولها بعد أن كانا قد تعوّدا على بعضهما وأنِس كلّ منهما للآخر..

وجاء يوم الخميس.. يوم الرّحيل.. جمع عبد الكريم أغراضه وأدباشه القليلة وحمل حقيبته ووقف يودّع أمّه وزوجته اللّتين ما كفّتا عن البكاء اللّيل بأكمله حتّى جفّت مآقيهما فلم تملك الأمّ إلاّ أن أمطرت ولدها بالدّعوات الصالحة أمّا صفاء فقد أوصته خيرا بنفسه وبأن يتذكّرهما دائما ويرسل لهما ما يطمئنهما عليه وبألاّ يغيب طويلا وبأن يعود في أوّل فرصة تتاح له.. ودّع عبد الكريم سعيدا ووالديه وشقّ طريقه نحو المطار حتّى يستعدّ للرّحلة الّتي ستنطلق في الرّابعة مساء..

الفصل الرّابع

لم يغمض له جفن طوال الرّحلة.. ظلّ بصره يشقّ سحابا يكتنف الزّرقة الممتدّة إلى لانهاية ويحاول أن يشرف على العالم من عل للمرّة الأولى في حياته.. غمرته رغبة جامحة في أن يحسّ ولو لمرّة يتيمة بأنّه فوق الجميع وأنّ كلّ النّاس حوله أقزام يهابون خطوات حذائه ويخافون أن تدوسهم رجلاه.. لقد خيّل إليه أنّه صار ذا قيمة كبيرة وهو يركب طائرة متوجّهة نحو نيويورك.. قيمة لم يشعر بها وهو على أرض الوطن بين الأهل والأصحاب.. بعد سويعات فقط يصير شخصا آخر.. مختلفا تماما عن عبد الكريم الّذي عانى من الفقر كثيرا حتّى وصل إلى هذا المكان من العالم.. شخصا مختلفا عن عبد الكريم الّذي كان في العراق.. في هذا البلد الجديد لا يعرفه أحد لذلك فهو يستطيع أن يصنع لنفسه ثوبا مغايرا يختاره ملء حرّيته وإرادته بعيدا عن ضغوط أمّه وأصدقائه والمجتمع الضّيّق الّذي يحيطه من كلّ جانب فيكبّله بأغلال العادات والتّقاليد وأصفاد العادة والعرف وقيود عيون النّاس وألسنتهم.. هنا لن يكلّمه أحد.. لن يعرفه أحد.. لن يسأله أحد عن سرّ تصرّفاته ولن يحاسبه أحد على أفعاله ولن يلومه أحد على أخطائه.. هنا سيجرّب المسؤوليّة والحرّيّة بعيدا عن أمّه..

وصل إلى نيويورك وما إن وطأت قدمه أرض المطار حتّى أحسّ أنّه يلبس قناعا وأنّه مقدم على تمثيل مسرحيّة لا يعرف متى سينزل السّتار على نهايتها.. وأنّ عليه أن يعيش الدّور ويتقمّصه جيّدا حتّى يقدر على مواجهة ما ينتظره في تلك الغربة.. تقدّم بخطى وئيدة واثقة.. حتّى بلغ بهو المطار.. وعندها رأى اسمه مكتوبا بالإنجليزية باللّون الأسود على لافتة متوسّطة الحجم فاتّجه إلى حاملها فوجده شخصا محلوق الشّعر.. ضخم الجثّة.. يرتدي نظّارة سوداء وكسوة سوداء..

كان شبيها برجال العصابات الّذين كان عبد الكريم يشاهدهم في الأفلام الأجنبيّة على شاشة التّلفاز.. لم يرتح عبد الكريم لمنظر الرّجل فنظر إليه في خوف شديد قائلا في نفسه: «هل من المعقول أن أشتغل في عصابة لتهريب الممنوعات؟ هل سأصير سفير هذه العصابة في العراق؟ لكنّ..»

لكنّ الرّجل الضّخم قطع خيط أفكاره قائلا بصوت خشن وبلغة إنجليزية غير فصيحة:

- هل أنت هو عبد الكريم سليمان؟
- أجل..
- هيّا معي إذن!
- إلى أين تأخذني؟
- لا تخف.. نحن ذاهبان إلى الرّئيس..
- رئيس ماذا؟
- الرّئيس الّذي سيشغّلكَ..

لم يُرِدْ عبد الكريم إطالة الحديث أكثر مع ذلك الرّجل إذ كان يبدو عليه أنّه عصبيّ قليلا وصعب المراس فانساق معه إلى سيّارة فخمة سوداء اللّون يجلس في مقدّمتها سائق.. وصعد الرّجل الضّخم بجانب السّائق بعد أن أجلس عبد الكريم في المقعد الخلفيّ.. وكان الطّريق طويلا.. وطوال الطّريق كانت الأفكار تتصارع في ذهن الشّابّ المسكين الّذي أحسّ منذ البداية بضعفه وعجزه أمام كلّ ما يحيط به.. لم يكن يتخيّل أنّه سيُساق عنوة إلى المكان الّذي يريده هؤلاء وأنّه سيصير وسط ذلك الحشد الهائل كالرّيشة في مهبّ الرّيح وكاللّعبة بيد الأقدار.. هو لا يعلم الآن إلى أين يقتادانه.. أ إلى النّعيم أم إلى حتفه؟ وفي كلّ الأحوال عليه أن ينفّذ كلّ ما يُطلَب منه.. لسبب واحد لكنّه هامّ.. هو الوحدة!.. هو هناك غريب.. وحيد وهم بذلك قادرون على تشكيله كما يريدون.. إن رضوا عنه ربّتوا عليه بأيديهم وإن غضبوا منه رفسوه بأرجلهم.. ومن آنذاك سيقف في وجههم؟ لا أحد.. من يعرفه؟ لا أحد.. كانت كلّ

هذه التّخيّلات تتراءى لعبد الكريم وهو يكاد يتجمّد في مكانه رعبا وهلعا ويقول في سرّه: «لم أتّفق مع سعيد على هذا.. لم يقل لي أنّني سأصير عضوا في عصابة.. ربّما خدعوه هو الآخر.. يا إلهي أحسّ أنّني في دوّامة وأنّني كلّما طلبت القمم احتضنتني السّفوح.. أحسّ أنّني في زجاجة بلّوريّة مقفلة بإحكام.. لا أقدر على التّنفّس ولا على التّكلّم.. أحسّ أنّني حتّى وإن صرخت فإنّ جزعي سيشرب حنجرتي.. صوتي يختنق بداخلي ولا أستطيع فعل شيء.. أريد أن أبكي.. أين أنتِ يا أمّي؟ ليتني سمعت كلامكِ.. من غيركِ سيغيثني في هذه الأوقات العصيبة؟..»

ووقفت السّيّارة فجأة.. نزل السّائق وفتح الباب لعبد الكريم وطلب منه بكلّ أدب أن ينزل.. وقف عبد الكريم ممتقع الوجه.. كان الظّلام حالكا فلم يستطع تمييز الأشياء من حوله.. تقدّم بخطى حذرة يتبعه شبحَا الرّجلين حتّى وجد نفسه أمام قصر تكتنفه الأنوار من كلّ جانب.. تقدّم أكثر حتّى وصل إلى الباب الّذي يبدو عليه أنّه الباب الرّئيسي للقصر.. ومن الجانب الأيسر للباب وقف رجل لا يقلّ ضخامة عن اللّذين اقتاداه إلى ذلك المكان البغيض.. همس السّائق إلى الحارس بكلمات مبهمة لم يفهمها عبد الكريم.. وما كان من الحارس إلاّ أن أشار عليهم بالانتظار قليلا ثمّ غاب برهة قصيرة وعاد سامحا لهم بالدّخول..

ودخل الثّلاثة إلى القصر.. وقف عبد الكريم مبهورا بدقّة تصميمه وفخامة أثاثه وأنواره السّاطعة حتّى خال نفسه يحلم.. لم ير الشّاب لروعة ذلك القصر مثيلا في حياته حتّى على شاشة التّلفاز! كان البهو واسعا وفيه ما يقارب الثّلاث قاعات للجلوس.. والأرضيّة لامعة تعكس صورة كلّ من يقف عليها.. ويتوسّط البهو سلّم فُرشت عليه سجّادة حمراء قانية.. لم يستطع عبد الكريم من فرطِ انبهاره أن يتمتّع بكلّ ما يشاهده إذ كان بصره ينتقل لا إراديّا بين أرجاء البهو دون أن يستطيع

الوقوف على ركن معيّن فيه.. كان يريد أن يتمعّن في كلّ جزء لكنّ الخوف المسيطر عليه جعله يعتقد أنّ الوقت غير مناسب بالمرّة لإتحاف عينيه بروعة التّصميم و جودة الذّوق.. وبينما كان هكذا يتأمّل حوله إذ به يرى رجلا ينزل على درجات السّلّم فانتابه إحساس بالرّهبة وهزّت بدنه قشعريرةٌ.. إنّه يرجّح أنّ ذلك النّازل ما هو إلاّ السّيّد الّذي سيتعامل معه أو بالأحرى سيشغّله عنده.. كان الرّجل أبيض الشّعر ما عدا بعض الشّعيرات السّوداء الّتي ما تزال نابتة في أعلى رأسه.. يمسك في يده غليونا ويرتدي بيجامة زرقاء اللّون.. وقف والابتسامة تعلو محيّاه وتطلّع جيّدا إلى وجه عبد الكريم ثمّ قال له بالانجليزيّة بنبرة رسميّة:

- مرحبا..

- أ.. أهلا بكَ..

- أنت ولا شكّ عبد الكريم سليمان.. أليس كذلك؟

- أجل..

- حسنا.. ما بكَ واقف؟.. اجلس..

تحسّس عبد الكريم مكان جلوسه غير قادر على رفع عينيه من الأرض ثمّ جلس غير مرتاح.. وعاد الرّجل يتأكّد من معلوماته:

- أنت من العراق..

- أجل..

- متحصّل على ليسانس اقتصاد من جامعة بغداد..

- أجل..

- وتعرف لماذا دعوناك؟

- ليس تحديدا..

- ماذا تعني؟

- جا.. جاري قال لي أنّكَ ستشغلني في أحد محلاّتك.. فقط...

- محلاّتي؟ أ لا تعرف طبيعة عملي؟

- كلاّ..
- أنا مالك أحد أكبر مطاعم نيويورك.. وأنا في حاجة إلى شابّ مثلك حتّى يساعدني في إدارة مطعم جديد سأفتتحه في بداية الأسبوع المقبل..
- تقصد.. يوم الإثنين؟
- أجل.. إذن ستبيت هذه اللّيلة في نزل سيوصلك جاكو إليه حتّى نجد لكَ مقرّا مناسبا.. وسيكون موعدنا على السّاعة التّاسعة من صباح الغد..
- حاضر..
همّ عبد الكريم بفتح الباب الخلفيّ للسّيّارة للصّعود كما في المرّة الأولى لكنّ السّائق جاكو استوقفه قائلا:
- ألا تريد أن تركب بجانبي؟
- هل هذا ممكن؟
- طبعا.. أنت الآن صرتَ منّا..
- شكرا.. لكنّ هذا لم يتمّ بعد..
- سيتمّ يا عزيزي.. سيتمّ..
- هل يبعد النّزل عن هنا كثيرا؟
- كلاّ.. مسافة عشرة كيلومترات فقط..
- وتقول فقط؟
- ستتعوّد يا أخي..
- هل من عادة رئيسكم أن يجلب عمّالا من الخارج لتشغيل مطاعمه؟
- تريد الصّراحة؟ أنا لا أحبّ الخوض في الحديث عن الشّغل كثيرا لأنّ الرّئيس لا يحبّ ذلك، وإن سمع أحدنا يتحدّث في هذا الموضوع رفَتَه دون مقدّمات.. لكن أتعرف؟ لقد ارتحتُ إليك كثيرا عندما رأيتكَ أمام المطار وارتحتُ أكثر حينما عرفتُ أنّك من العراق.. أنا من موريطانيا..
- من موريطانيا؟ وما الّذي جاء بكَ إلى هنا؟
- نفس السّبب الّذي جاء بكَ أنتَ! لقمة العيش..

- أنت هكذا أجبتني عن سؤالي دون أن تشعر..
- صحيح.. لقد لاحظت منذ اشتغالي هنا من سنتين أنّ السّير فرانكو يجلب عمّاله دائما من الخارج بل أكثر من ذلك.. إنّه يحرص على أن يعرف عنهم كلّ شيء قبل أن يعيّنهم.. لكنّه في المقابل لا يحبّذ الأخطاء..
- وكيف يعرف عنهم كلّ شيء وهم في بلدانهم؟
- أنت طيّب كثيرا يا عبد الكريم.. مثل هذا الأمر لن يعسر على رجل أعمال عملاق مثله.. إنّ لديه أعينا في كلّ مكان من العالم ترصد له الكفاءات الّتي يمكن الاعتماد عليها وخاصّة الوثوق بها..
- الوثوق بها؟
- أجل.. إنّه يمكن أن يتغاضى عن كلّ الأخطاء ولو بصعوبة عدا خيانة ثقته.. إن اكتشف خيانة أحدهم فإنّه لا يغفر له أبدا..
- عفوا لكن أودّ أن أعرف.. هل أنّ اسمه فرانكو..
- اسمه "فرانكو كازاني" إنّه من أصل إيطالي أبوه من روما وأمّه أمريكيّة.. وُلِد هنا وعاش هنا.. وتزوّج أمريكيّة.. وعمره الآن يناهز الخامسة والخمسين..
- من أين عرفت كلّ هذا يا رجل؟
- أسأل فأعرف.. ثمّ إنّ رجال الأعمال لا يملكون أسرارا.. وأنا أخبرك بكلّ هذا لأنّني كما قلت لكَ توسّمت فيك الأمانة والنّزاهة منذ البداية..
- سيكون ظنّك في محلّه ونحن منذ اليوم أصدقاء..
- حسنا.. ها قد وصلنا..
- بهذه السّرعة؟
- أ لم أقل لك أنّك ستتعوّد على طول المسافة؟ تصبح على خير.. سأمرّ غدا لأخذك إلى السّير فرانكو حسب الإتّفاق..

ودّع عبد الكريم السّائق ودخل إلى الفندق للبحث عن الغرفة الّتي حُجِزت باسمه.. كان يحسّ بعد ذلك الحديث مع جاكو بنوع من الطّمأنينة يدخل قلبه بعد كلّ ذلك الخوف الّذي اعتراه في اللّحظة الأولى.. ليست الطّمأنينة فقط بل الأمان وكأنّه لم يعد وحيدا في ذلك البلد الموحش وكأنّه وجد أخيرا ظهرا يسنده إذا أعوزه شيء وملاذا يحتمي به إن أمكن وقت الخطر.. لم يشعر وهو يتحدّث إليه أبدا بأنّه غريب عنه.. على العكس من ذلك.. شعُر أنّه يعرفه منذ أمد بعيد.. ربّما لتشابه الأصل.. أخذ مفتاح الغرفة وهو مرتاح البال.. دخل الغرفة فوجدها فاخرة ورائعة.. الألوان فيها متناسقة تنمّ عن ذوق رفيع وخبرة بفنّ الدّيكور والتّزويق.. كانت المرّة الأولى الّتي ينزل فيها في فندق.. لم يكن معتادا على هذا الأمر بل إنّه لم يكن حتّى يحلم بقدوم هذا اليوم الّذي يصير فيه من نزلاء الفنادق ذات الخمس نجوم!

فتح السّتار فتراءت له مدينة نيويورك بأنوارها المتلألئة وأضوائها السّاطعة من علوّ خمسة عشر طابقا في أبهى حلّة فقال في نفسه في حسرة: «أين أنتَ من هذا يا بلدي العزيز؟» ثمّ في سخرية: «وتريدينني يا أمّي أن أدفن نفسي هناك؟ سأجلبك عن قريب إلى هنا حتّى تري بعينيك الرّقيّ الحقيقيّ».. ألقى نظرة خاطفة على السّاعة فوجدها تدقّ الواحدة والنّصف بعد منتصف اللّيل.. هرع إلى ثيابه يبدّلها حتّى ينام ليستيقظ في الغد نشيطا ويقابل السّير فرانكو.. غدا سيتغيّر مجرى حياته تماما!

* * *

وجاء اليوم التّالي، ولم تمرّ سويعات على شروق الشّمس حتّى وجد عبد الكريم نفسه واقفا أمام السّير فرانكو الّذي استهلّ حديثه معه بقوله:

- أهلا بعبد الكريم.. هل نمت جيّدا البارحة؟ هل الغرفة مريحة؟

- مريحة جدّا.. شكرا لكَ..
- لا تشكرني.. لن يمرّ شيء دون أن تدفع ثمنه.. أنت دارس للاقتصاد وتعرف الكثير في هذا المجال أكثر منّي دون شكّ..
- العفو..
- يعجبني فيكَ تواضعكَ.. حسنا قد فكّرت جيّدا وقرّرت أن أعيّنكَ مبدئيّا مديرا للمشتريات في المطعم الجديد.. أقول مبدئيّا.. أي أنّكَ ستحاول إثبات جدارتك في العمل للحصول على ترقية مثلا أو العكس..
- العكس؟
- أجل.. إن أثبتت أنّكَ غير جدير بمهامّك ستنحدر إلى مراتب أقلّ ولِمَ لا.. تُرْفت..
- أُرفتُ؟
- كلّ الاحتمالات واردة.. أنتَ الآن بين خيارين.. أن تعمل وسعك وتسير وفق المنهج المستقيم أو..
- حاضر.. حاضر سيّدي..
- اسمي "سير فرانكو"..
- حاضر سير فرانكو..
- مع السّلامة..

استغرب عبد الكريم الطّريقة الّتي أنهى بها ذلك الرّجل الحديث الدّائر بينهما.. ودّعه قبل أن يقول له ماذا عليه أن يفعل بعد قرار التّعيين ذاك.. ولكنّ حيرته تبدّدت حينما همّ بالانصراف إذ اعترض طريقه ذلك العون الّذي كان يرفع اللاّفتة بالمطار والّذي اقتاده صحبة السّائق إلى القصر.. كان يبدو عليه أنّه السّاعد الأيمن للسّير فرانكو.. استوقفه واضعا يده في جيبه ثمّ قال:

- هاكَ مفتاح شقّتك الجديدة.. سوف يوصلكَ جاكو إليها.. ستمكث بها حتّى نتّصل بكَ لتعرف ما ستفعله.. اتّفقنا؟
- طبعا..

فتح عبد الكريم الباب ودلف إلى بيت خارق الجمال على بساطته الفائقة.. جدرانه مطليّة بلون بنفسجيّ فاتح وأرضيّته لامعة.. دخل الغرفة الّتي كانت على يمينه فوجد فيها جهاز تلفاز متوسّط الحجم موضوعا على طاولة خشبيّة مربّعة الشّكل وُضِعَت في أسفلها بعض أشرطة الفيديو.. وفي الرّكن وُضِع هاتف أسود اللّون على طاولة.. ومن الجانبين أريكتان كبيرتان مزركشتان بالأحمر والأزرق وتتوسّط الغرفة طاولة مستديرة تعلوها مزهريّة فارغة..

غادر الغرفة وتوجّه صوب المطبخ فألفاه ضيّقا.. به جهاز طبخ وثلاّجة وخزانة ضَمَّت بعض الأواني والأكواب والفناجين.. فتح الثّلاّجة فوجد فيها بعض معلّبات الأكلات الجاهزة وقارورة حليب وقارورة ماء..

وبعدها دلف إلى غرفة النّوم فوجد فيها سريرا صالحا لشخصين وخزانة بأربعة أبواب..

انبهر عبد الكريم بالبيت كثيرا.. كان صغيرا وبسيطا وكأنّه صُنِعَ خصّيصا لفرد واحد.. لكنّه تساءل: «من أين لي بثمن هذه الشّقّة وأنا لم أعمل بعدُ؟ هل هي هديّة؟ أم أنّ الرّئيس سيخصم ثمنها من مرتّبي؟»

كان عبد الكريم كمن سكن تجاويف كهف مظلم وهو وسط جماعة تكتنف سلوكيّاتها الغموض الشّديد وتحيط كل تحرّكاتها بالسّرّيّة والكتمان.. لم يكنْ عليه أن يفعل شيئا سوى أن يجلس وينتظر أوامرا قد تصدر في أيّة لحظة..

غيّر ثيابه ثمّ توجّه إلى الثّلاّجة كي يبحث عن أيّ شيء يتغدّاه فوقعت عينه على علب المصبّرات فأخذ إحداها وفتحها وأخذ ملعقة وتوجّه بغدائه ذاك إلى غرفة الجلوس.. شغّل التّلفاز وأخذ جهاز التّحكّم عن بعد.. جلس على الأريكة والتقم ملعقة من العلبة فوجد اللّقمة باردة.. وعندها تذكّر المأكولات الّتي كانت أمّه تعدّها له منذ يومين فقط.. تذكّر حرارة حسائها ودفء الحياة معها.. وأحسّ ببرودة الغربة الّتي يعيشها فتحسّر

كثيرا حسرةً شارف معها على النّدم لكنّه تراجع قائلا في نفسه: «أنتَ الآن يا عبد الكريم في خضمّ حقائق لا ينفع معها قطم الأنامل.. أنتَ تسير الآن إلى الأمام وكلّما تقدّمتَ أكثر ازددتَ نزولا إلى الأعماق.. لا يجدي الآن ندمٌ ولا تقهقرٌ.. يجب أن تواجه وتتأقلم وتُحاول أن تتقبّل هذا الواقع الّذي تعيشه وتقتنع به.. صرتَ الآن أمام أمر مقضيّ لا تملك معه الالتفات إلى الخلف.. يجب أن تعيش هذا الواقع وتصير عنصرا هامّا في المجموعة وتقحم نفسكَ داخلها لتساندك كي تحقّق ما تصبو إليه وتحميكَ إن دعت الحاجة إلى ذلك..»

وبينما هو هكذا غارق في تفكير عميق إذ غلبه النّعاس فترة طويلة لم يُفق بعدها إلاّ على صوت الهاتف يرنّ بجانبه فاستيقظ مرتعبا ورفع السّماعة..

- آلو.. من معي؟

- أنا ماكس.. أنا من سلّمكَ مفاتيح الشّقّة..

- آه! قد عرفتكَ..

- يأمرك الرّئيس بأن تقابله بعد ساعتين من الآن عند المطعم الجديد.. سيمرّ جاكو لأخذك إلى هناك..

- حاضر..

وأقفل السّمّاعة قائلا وهو يلقي نظرة على ساعته اليدويّة: «بعد ساعتين.. أي على السّاعة السّابعة.. يا إلهي لقد نمتُ طويلا..»

قام فغسل أطرافه وشرب كوب حليب.. ارتدى ثيابه.. سروال جينز وسترة بيضاء.. ثمّ جلس في انتظار قدوم السّائق.. وما هي إلاّ سويعة حتّى سمع صوت منبّه سيّارة فأطلّ من الشّبّاك ليرى القادم فوجده جاكو.. هرع إلى الباب، فتحه وغادر البيت.. صعِد السّيّارة في عجل:

- مرحبا عبد الكريم.. كيف حالكَ؟

- بخير إلى حدّ الآن..

- ألم تتأقلم بعدُ مع حياتنا هنا؟

- يومان فقط وتريدني أن أتأقلم؟
ثمّ تنهّد وأضاف:
- لقد مللت.. لم تمرّ سويعات على استلامي للشّقّة وأحسّ أنّني أكاد أنفجر من الغيظ من شدّة الوحدة الّتي أشعر بها.. لا أجد شيئا يسلّيني.. عندما سمعت صوت سيّارتك كدتُ أطير فرحا.. على الأقلّ سأجد شخصا أتحدّث إليه..
- لا يا عزيزي.. غيري كثير.. وعندما تتعوّد علينا ستنساني ولا شكّ في ذلك..
- من غيرك؟ السّير فرانكو؟ أم حارس القصر؟ أم أنّك ربّما تقصد ماكس! إنّه لا يملك أسلوبا في التّخاطب مع النّاس غير الأمر.. وكأنّه لسان الرّئيس..
- تماما.. إنّه لسان الرّئيس.. أنصحكَ بأن تتجنّبه وتحذره قدر الإمكان.. إنّه ماكر.. هو لسانه الّذي يتكلّم به وعينه الّتي ترصد كلّ كبيرة وصغيرة وأذنه الّتي تسمع كلّ حركة وساعده الأيمن الّذي يقوم على كلّ طلباته.. ماذا تريد أكثر من ذلك؟
- شكرا لكَ على النّصيحة يا جاكو.. لا أظنّ أنّني سأجد قلبا أطيب من قلبك في هذه الغربة..
- حالكَ هي حالي يا عزيزي.. أنا كذلك لقيتُ صعوبة كبيرة في البداية حتّى تعوّدت على نمط العيش هنا.. وقد ساعدني في ذلك صديقي ميشال..
- وأين هو الآن؟
- لقد كان يعمل معنا حارسا للقصر مكان الّذي رأيته يوم قدومكَ.. لكنّه رُفِتَ بعد قدومي أنا بحوالي سنة..
- ولِمَ رُفِتَ؟
- لأنّه سمح لصحفيّ أن يدخل إلى القصر دون إذن من السّير فرانكو رغم أنّه كان مظلوما فقد حكى لي بعد ذلك أنّ رئيس الخدم هو الّذي فتح للصّحفيّ باب المطبخ بعد أن أخذ منه رشوة.. رفته الرّئيس دون أن يستوضح حقيقة الأمر

خاصّة وأنّه لم يكن ليصدّق حارسا عُيّن منذ بضع سنوات ويكذّب رئيس الخدم الّذي عمل في ذلك القصر منذ تشييده أي منذ عشرين عاما على الأقلّ.. رفت ميشال وأعيد قسرا إلى بلاده فرنسا..

- هل هو قادر على فعل كلّ هاته الأشياء؟

- جرّب وسترى بنفسك!..

- لكن لم تقل لي.. هل فعلوا معك أنت من سنتين نفس ما يفعلونه معي الآن؟ هل أحضروا لكَ شقّة مثلا و..

- لا.. أبدا.. لا وجه للمقارنة بيننا.. أنا سائق بسيط أمّا أنت فربّما صرتَ مديرا لأحد مطاعمه.. السّير فرانكو يهتمّ بالمظاهر كثيرا.. إنّه يحبّ أن يبدو أمام الجميع وكأنّه لا يعيّن بمطاعمه إلاّ ذوي المال والعقل.. أي أنّه يحسّ أنّ في حضور أحد أعوانه بكسوة غير لائقة مثلا إهانة له.. لذلك فهو يحرص على هذه الشّكليّات.. أمّا بالنّسبة لي فلا يهمّه من أمري سوى أن يكون زيّي هذا نظيفا ولائقا ولا يهمّه إن نمتُ في فندق أو في قنّ دجاج..

- وأين تعيش إذن؟

- في غرفة صغيرة في حيّ قريب من هنا.. أمّا عن الأكل فأنا أتناول في أغلب الأحيان مع طهاة مطاعمه ما يسدّ رمقي..

- المهمّ أنّه أعطاك غرفة..

- أعطاني؟ كم أنت طيّب.. لا أحد هنا يعطيك شيئا دون مقابل.. ثمن الغرفة لم أنته من تسديده إلاّ منذ شهر..

- دفعتَ ثمنها؟

- طبعا..

ثمّ ركن السّيّارة وهو يقول:

- لقد وصلنا.. هاهو المطعم أمامك.. حظّا سعيدا..

- شكرا..

نزل عبد الكريم من السّيّارة وهو يفكّر في الكلام الّذي قاله جاكو.. هل من المعقول أن يطالبه السّير فرانكو بثمن الشّقّة؟ ومن أين له ذلك؟ لهذا الرّجل مخالب كثيرة وأنياب حادّة.. كيف له أن يفلت منها؟ يا له من مأزق لا مخرج له إلاّ انتظار ما تحمله الأقدار..

دخل المطعم فوجد ماكس في انتظاره..

- جئت في الموعد تماما.. السّير فرانكو ينتظرك في ذلك المكتب.. أُطرق الباب ثمّ ادخل إن سمح لك..

نظر عبد الكريم إلى مخاطبه شزرا وقد جال في خاطره ما قاله عنه جاكو منذ قليل ثمّ أجابه في اشمئزاز: «أعرف.. » ثمّ تمادى في سيره إلى المكتب وهو يقول في سرّه: «أ تظنّنا حيوانات حتّى ندخل دون استئذان أم أنّنا ننتظر حضرتكَ حتّى تعلّمنا الأصول والآداب أيّها الصّعلوك؟»

وقف أمام الرّئيس الّذي كان جالسا في ارتياح على كرسيّ المكتب وفي يده غليونه كالعادة.. حيّاه باحترام فاعتدل السّير فرانكو في جلسته قائلا:

- مساء الخير.. هل أعجبتكَ الشّقّة؟

- طبعا.. إنّها رائعة..

- حسنا إذن.. أتعرف صاحب هذا المكتب؟

- إنّه مكتبك طبعا..

- إنّه مكتب مدير المطعم.. وأنا من يشغل هذا المنصب حاليّا حتّى أجد شخصا مناسبا يحلّ محلّي..

- ...

- لا تفكّر كثيرا.. منصبكَ كذلك ليس متواضعا بالمرّة.. إنّه مشرّف وسيدرّ عليكَ أموالا طائلة.. مكتبكَ يبعد عن هنا حوالي مترين وستستلم شغلكَ فيه بداية من يوم غد..

- غدا؟ ألم تقلْ أنّك ستفتتح المطعم يوم الاثنين؟

- أنت نبيه.. لكنّ شغلكَ سيسبق يوم الإفتتاح.. ستجهّز ميزانيّة المطعم وما يجب توفيره من المشتريات الّتي سنحتاجها يوم الاثنين هل فهمت؟

- أجل.. أنا آسف..

- هاك عقد الشّغل.. ستوقّع عليه.. وهذه وصول أمانة بثمن الشّقّة..

- وصول أمانة؟

- لا تخف.. سيكون المبلغ رمزيّا إذا قسّمته على أقساط.. كلّ شهر تدفع القليل.. وهذا المبلغ لن يؤثّر كثيرا في مرتّبكَ الّذي سيكون مرتفعا..

- حاضر..

وقّع عبد الكريم على تلك الأوراق على مضض وهو غير مقتنع تماما بما يقوم به.. بل إنّه كان خائفا كثيرا من غموض ذلك الرّجل الّذي يتصرّف وكأنّه واثق ممّا سيأتي وضامن للمستقبل جيّدا.. أحسّ في تلك اللّحظة أنّه مكبّل بقيود من حديد ومشدود إلى واقعه ذاك بقوّة لا يقدر معها على المقاومة.. تلك الوصول ربطته بذلك الشّخص وذلك المكان وذلك البلد.. لن يستطيع الإفلات وإلاّ وجد نفسه وراء قضبان السّجن.. لكن لم يكن له خيار آخر.. كان لا بدّ له من توقيع تلك الأوراق.. لو لم يفعل ذلك لَبَاتَ ليلته في العراء أو لربّما استقلّ أوّل طائرة إلى العراق!..

وعندما همّ بالمغادرة استوقفه السّير فرانكو قائلا وهو يشير في امتعاض واضح إلى السّروال والسّترة:

- خذ بعض النّقود من عند ماكس وقلْ لجاكو أن يدلّكَ على إحدى متاجر المدينة.. اقتن كسوة لائقة مع ربطة عنق حتّى تحضر بها حفل الافتتاح.. ولا داعي لأن ترتدي هذي الملابس الّتي ترتدي الآن في العمل إنّها ملابس للنّزهة أو للذّهاب إلى السّوق..

- حاضر..

قال عبد الكريم هذه الكلمة والدّماء تغلي في عروقه.. غادر مكتب السّير فرانكو قبل أن ينفجر بركان غيظه.. كان يرتعش غضبا حتّى أنّه لم يطلب من ماكس المال بل اتّجه مهرولا إلى جاكو..

- هيّا بنا يا جاكو..

- إلى أين؟

- إلى متجر يبيع ملابس الرّجال بأبخس الأسعار..

- ومن أين لك المال؟

- لا يهمّ..

ركبا السّيّارة وتوجّها إلى متجر قريب من المطعم.. اقتنى عبد الكريم كسوة رماديّة بنصف ما بقي له من ثمن القلادة الّتي باعها ليسافر..

- أيظنّني ذليلا إلى تلك الدّرجة؟ أطلب مالا من ماكس حتّى أشتري كسوة؟ ويقول لي في اشمئزاز "لا داعي لأن ترتدي هذه الملابس.." لماذا يحتقرني؟ أريد أن أعرف فقط لماذا..

- لو كان يحتقرك لما منحكَ منصبا مهمّا في المطعم..

- هو مجبر على منحي إيّاه لأنّني عامل كفء ولأنّه في حاجة ماسّة لي..

- غيركَ موجود في كلّ أصقاع العالم.. لا تعتقد أنّك في حالة تسمح لك باختيار شيء.. أنت مجبر على فعل كلّ ما يطلبه منكَ حتّى لا تموت جوعا أمّا هو فيمكنه أن يجد غيرك بكلّ سهولة..

- معكَ كلّ الحقّ.. لكن ما شأنه هو إن لم أرد أنا ارتداء كسوة؟

- هو صاحب المطعم وله حقّ اختيار كلّ شيء.. ثمّ إنّني سبق وأعلمتك أنّه يحبّ المظاهر كثيرا ويهتمّ بها أكثر من اهتمامه أحيانا بالجوهر..

- حسنا إذن.. أرجوك عُد بي إلى بيتي.. أريد أن أتعشّى وأرتاح قليلا.. غدا أباشر العمل..

الفصل الخامس

نيويورك في 1998/7/31

«أمّي العزيزة وحبيبتي صفاء،

تحيّة عطرة،

أمّا بعدُ، فإنّني بخير وأمان لا أشكو همّا ولا أرى عذابا إلاّ همّ الوحدة وعذاب الغربة وألم شوقي لرؤيتكما ورؤية أصحابي وأخصّ منهم سعيدا.. أتذكّر دائما أكلاتكِ الطّيّبة يا أمّاه وأنا أفتح معلّبات الأكل الجاهز وأتذكّر ألحان ناظم الغزالي حينما أفتح أحيانا آلة التّسجيل فلا أسمع إلاّ صخب الأغاني الأجنبيّة وأتذكّر شايكِ الدّافئ تضعينه فوق الكانون حينما أصبّ الماء السّاخن في الكوب وأضع فيه كيس الشّاي الصّغير فلا أترشّف معه إلاّ برودة الغربة والحاجة إلى دفء حضنكِ.. هنا كلّ شيء موجود.. كلّ شيء متوفّر ورغم ذلك أحسّ بالملل.. أشعر بأغلال تكبّل حريّتي ولا أعرف لماذا.. أشعر أنّني مسجون وراء قضبان حديديّة..

لكنّني رغم كلّ هذا أحسّ بالفخر لأنّني سأعود إن شاء الله مرفوع الرّأس وموفور المال.. إنّي أتحمّل كلّ المشاقّ وأذلّل كلّ المصاعب في سبيل تحقيق حلمي.. لا تخشيْ عليّ شيئا.. أنا بخير والحمد لله.. هذه أوّل رسالة تصلكم من عندي وربّما ستكون الأخيرة لأنّني في المرّة القادمة سأتّصل بكم في بيت سعيد حتّى أسمع أصوات وحشتني.. بلّغي سلامي إلى صفاء وإلى سعيد وإلى كلّ من يعرفني في القرية..

والسّلام

ابنكِ عبد الكريم »

أتمّ سعيد قراءة الرّسالة فوجد عائشة تذرف الدّموع الغزيرة فأخذ يهدّئ من روعها:

- صبرا يا خالة.. ألم يطمئِنّ قلبكِ الآن بعد هذا الخطاب؟ قد علمتِ أنّ ابنكِ بخير والحمد لله..

- على العكس يا سعيد.. انشغل بالي عليه أكثر.. أنا أعرف ابني.. إنّه لا يطيق تلك الحياة الصّعبة.. ما كان عليّ أن أدعه يسافر إلى هناك..

- بلى.. لو لم تفعلي.. لفقد عقله أو روحه.. لو لم يسافر لضاع منكِ إلى الأبد..

- بَعُدَ الشّرّ.. حماه الله من كلّ مكروه..

- إذن تذكّري قوله تعالى: «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»..

- صدق الله العظيم.. طمأنتَ قلبي يا بنيّ طَمْأَنَ الله قلبكَ ومنحكَ بنت الحلال.. لكن ألستَ أنتَ من عرض عليه هذا الشّغل؟ ألا يمكنكَ معرفة شيء عنه؟

-صديقي الّذي توسّط لعبد الكريم في العمل تتوقّف مهمّته عند سفر عبد الكريم وليس له علاقة شخصيّة بالمشغّل لكن تأكّدي أنّني لو عرفتُ شيئا لن أتوانى عن تبليغكِ إيّاه.. ثمّ أنّي هنا في مقام عبد الكريم يا خالة.. إن احتجت لشيء فأنا رهن الإشارة.. لا تتردّدي في طلب المساعدة..

وعندها دخلت صفاء حاملة طبقا تعلوه أكواب من عصير اللّيمون..

- سلمتَ لنا يا أخي سعيد.. لولاك لما قدرنا على فعل شيء..

- لا تقولي هذا.. أنتِ وعبد الكريم بمثابة أخويّ والخالة عائشة مثل والدتي تماما والله أعلم..

- جازاك الله خيرا عن كلّ ما تفعله يا ولدي..

طوال فترة غياب عبد الكريم كانت صفاء تقوم بكلّ أشغال البيت.. لم تكن تترك أمّ ناظم تقوم بأيّ شيء عدا خياطة الملابس.. حتّى أنّها كانت تذهب في أغلب الأحيان بنفسها إلى السّوق لاقتناء مستلزمات البيت.. كانت نشيطة ومتقِنة لكلّ ما تفعله لذلك أحبّتها حماتها كثيرا وصارت

تستعيض بها عن غياب الإبن.. كما كانت صفاء ذكيّة حتّى أنّها قرّرت تعلّم الخياطة حتّى تساعد أمّ ناظم قليلا..

ومرّت الأيّام والأسابيع والعلاقة بينهما تتوطّد أكثر فأكثر حتّى صارا بمثابة أمّ وابنتها.. عائشة بطيبة قلبها وحنانها وصفاء بنقاء سريرتها وطاعتها.. وكان حبّهما لعبد الكريم هو الّذي جعلهما يتحمّلان كلّ الآلام ويصمدان ويصنعان من الصّبر قوّة حتّى يعود حبيبهما الغائب..

وفي يوم من الأيّام وبينما كانت عائشة جالسة أمام آلة الخياطة إذ بالباب يُفْتح.. عادت صفاء من السّوق حاملة قفّة مملوءة بالمشتريات.. نظرت إليها عائشة وهي تقول مبتسمة:

- سلِمتِ لي يا صفاء.. هل جلبت لنا الفواكه الّتي.. ما لكِ يا صفاء؟

كانت صفاء مصفرّة الوجه يبدو عليها الإعياء الشّديد.. وضعت الفتاة يدها على جبينها.. اسودّت الدّنيا في وجهها.. سقطت القفّة من يدها ثمّ صاحت مستنجدة:

- عمّتي.. عمّتي..

ثمّ وقعت مغشيّا عليها..

هرعت عائشة إليها مفزوعة فحملتها بصعوبة ووضعتها على سرير قريب.. جلبت كوب ماء وقارورة عطر.. رشّتها به حتّى استفاقت قليلا فسقتها الماء وقالت لها في خوف: «هل أنتِ بخير؟» لكنّ صفاء لم تُجِبْ.. كانت على ما يبدو قد أغفت قليلا.. سارعت أمّ ناظم إلى بيت سعيد لينجدها في تلك المصيبة الّتي ألمّت بها.. فلم يتأخّر الشّابّ في طلب الدّكتور.. وبعد أن فحصها ابتسم وقال للعمّة الّتي كانت ترتعد خوفا على صحّة زوجة ابنها وابنة أخيها..

- لا تخشيا شيئا.. إنّه مجرّد إرهاق..

- لقد قلت لها يا دكتور أكثر من مرّة ألاّ تجهد نفسها.. إنّها لا ترتاح أبدا.. لا تترك شغلا في البيت إلاّ وتقوم به..

- هذا لا ينفع.. هذا مضرّ بها وبطفلها..

- طفلها؟
- أجل.. إنّها حامل في الشّهر الثّاني..
- الحمد لكَ يا ربّ..
- هذه وصفة الأدوية.. إنّها مجرّد فيتامينات حتّى تستعيد نشاطها.. لكن، يجب عليها أن تبتعد عن كلّ عمل متعب..

أخذ سعيد الوصفة ودفع للطّبيب أجرته وأوصله إلى باب البيت وخرج حتّى يجلب الأدوية لصفاء.. وظلّت عائشة لا تسعُها الدّنيا فرحا.. تحمد الله وتشكره وتنتظر بفارغ الصّبر استيقاظ كنّتها حتّى تبشّرها..

ومرّت الأيّام وكانت أيّاما سعيدة مرّت على الأمّ والبنت كما تمرّ السّفن في البحر الهادئ.. كانت عائشة تقوم بكلّ شيء وتعتني بصفاء عناية كبيرة فيما كانت صفاء تخيط ملابس الضّيف الجديد.. لم تكن أبدا تغادر البيت وحتّى الحاجيات اليوميّة كان سعيد يجلبها مرّة كلّ أسبوع.. وطوال مدّة الحمل لم يتّصل عبد الكريم كما وعد أمّه حتّى ساورت المسكينة شكوك عديدة كانت صفاء تبدّدها بكلامها الجميل وحديثها العذب.. كانت دائما تقول لأمّ ناظم: «لعلّه مشغول كثيرا بعمله ولا يجد الوقت للاتّصال بنا.. تصوّري أنّه يعود متأخّرا إلى البيت ثمّ لا تنسيْ أنّ الأوقات بيننا مختلفة.. ليلنا هو نهارهم ونهارنا هو ليلهم وهو لا يستطيع أن يزعج الجيران باتّصاله بنا في وقت متأخّر.. أو ربّما كان يريد الاحتفاظ بمصاريف المكالمات فالأسعار هناك باهضة..»

كانت بهذه الحجج قادرة على إقناع عائشة لكن رغم ذلك لم يكن قلب الأمّ مطمئنّا أبدا.. كانت تريده أن يتّصل حتّى يعلم على الأقلّ بقدوم ابنه إلى الدّنيا..

ومضت شهور أربعة وكلّ واحدة منهما على حالها لا يغيّرها مغيّر إلاّ حيرتهما على عبد الكريم الّذي لم يتّصل

بعدُ.. حتّى جاءهما سعيد ذات صباح فرحا وهو يصيح والدّنيا لا تسعه بشرا واغتباطا:

- خالة عائشة! خالة عائشة! لقد اتّصلّ عبد الكريم منذ دقيقتين وقد جئت بسرعة كي أعلمكِ بأنّه سيعيد الاتّصال بعد ربع ساعة حتّى تجهّزي نفسكِ وتأتي إلى بيتنا..

- حاضر يا ولدي.. أنا جاهزة.. كم انتظرت هذه اللّحظة يا ربّي.. صفاء، أفضّل أن تبقيْ هنا حتّى أعود..

- حاضر يا عمّتي.. لكن لا تنسيْ أن تبلّغي سلامي لعبد الكريم وأن تقولي له أنّه سيصير أبا عن قريب إن شاء الله..

وذهبت الخالة إلى بيت أمّ سعيد ملهوفة وبودّها لو كانت قادرة على الرّكض كما كانت تفعل على حافّة الوادي وهي في الرّبيع العاشر من عمرها.. أخذت تهرول ممسكة بملايتها السّوداء.. لم تكن المرأة مهتمّة لشيء قدر اهتمامها باللّحاق على مكالمة ولدها الغائب منذ نصف سنة.. وأخيرا وصلتْ.. وقفت على العتبة تلتقط أنفاسها وتستردّ قوّتها المهدورة في انتظار أن يفتح سعيد الباب.. وما إن وضعت المرأة رجلها في فناء الدّار حتّى رنّ جرس الهاتف.. اقتفت أذنها آثار الرّنين وفتّشت عن مصدره حتّى عرفته واهتدت إلى الغرفة الّتي كان الهاتف موضوعا فيها فوثبت عليه ورفعت السّمّاعة في لهفة:

- آلو! عبد الكريم..

فأتاها الصّوت بعيدا..

- آلو! من؟ خالتي أمّ سعيد؟

- ألم تعرف صوتي يا بنيّ؟.. هل نسيتَ صوت أمّكَ؟

- أمّي؟ كيف حالكِ يا أمّاه؟ كم اشتقتِ لك يا أعزّ إنسان في الدّنيا..

- بدليل أنّك تتّصل بي كلّ يوم.. أليس كذلك؟

- مشاغل والله يا أمّاه.. الشّغل هنا كثير.. والوقت الآن ليس وقت عتاب ولوم..

- معكَ حقّ يا ولدي.. أخبرني ماذا تشتغل هناك؟

- أنا مدير مشتريات في مطعم..
- مدير مطعم؟
- تقريبا.. أرجوك لا أستطيع أن أُطِيل الحديث أكثر..
- قلْ لي يا عبد الكريم.. كيف تعيش هناك؟ ماذا تأكل؟ أين تسكن؟ من يهتمّ بكَ؟..
- كلّ شيء على ما يرام يا أمّاه.. أُحسّ أنّ الخطّ سينقطع.. بلّغي سلامي إلى الجميع واهتمّي بنفسكِ و..
- آلو! آلو! عبد الكريم!..

انقطع الخطّ.. أجل انقطع الخطّ قبل أن تُعلمه بقدوم ابنه قريبا.. بأنّه سيصير أبا.. هي لم تنس ذلك.. لم تكن تعتقد أنّها ستُجازى عن صبرها كلّ تلك المدّة ببضع عبارات زادت النّار في قلبها اشتعالا.. كاد فؤادها ينفطر ألما وحزنا وحرقة.. أعادت السّمّاعة إلى مكانها بهدوء وأجهشت بالبكاء في صوت تقطعه بين الفينة والأخرى شهقات عناء وزفرات شقاء فانحنت عليها أمّ سعيد تواسيها:

- لا داعي للبكاء يا أختاه.. ولدكِ بخير وقد اطمأنّ قلبكِ عليه أخيرا.. فلِمَ الحزن والكمد؟
- أنتظره زهاء السّتّة أشهر حتّى يكلّمني ستّ ثوان..
- احمدي الله واملئي صدركِ إيمانا.. ولدكِ ناجح في عمله وفي حياته تبارك الله.. ماذا تطلبين أكثر؟
- الله أعلم أنّني أدعو له في كلّ صلاة بالهداية والتّوفيق وأشكر الله على كلّ ما يقدّمه.. لكنّ مشكلتي أنّني لم أعلمه بخبر مهمّ..
- تقصدين خبر حمل زوجته؟
- يجب أن يأتي قريبا من تلك البلاد حتّى يشهد وضع ابنه..
- لا يهمّ.. سيتّصل مرّة أخرى وأعلميه بنفسك.. وإن أردتِ سأوصي سعيدا بأن يعلمه بالأمر إن اتّصل فجأة..
- شكرا لكِ يا أمّ سعيد.. أنتم والله نعم الجيران..

- لا تقولي هذا الكلام.. نحن إخوان.. إن احتجت شيئا فأنا دائما موجودة..
- لا بدّ أنّني سأحتاجك في ولادة حفيدي القادم..
- طبعا.. أنتِ تأمرين..
ورغم كلّ ما فعلته أمّ سعيد إلاّ أنّ قلق عائشة لم يزلْ.. ظلّت طوال طريق العودة إلى البيت رغم قِصر المسافة تفكّر وتفكّر في طريقة ناجعة تُبلِغ بها ابنها الخبر.. كانت تحسّ أنّ تلك المكالمة لن تتكرّر مرّة أخرى.. وأنّ عبد الكريم لن يعاود الاتّصال بأهله أبدا.. هي تعرف ابنها جيّدا وتحفظ تصرّفاته عن ظهر قلب وتقرأ ما يجول بخاطره قبل أن ينطق به لسانه.. كانت تحسّ من نبرات صوته أنّ كلّ أخباره ستنقطع قريبا تماما مثلما انقطعت تلك المكالمة.. كانت متشائمة كثيرا لكنّها رجّحت أنّه بعد سماعه للنبأ السّعيد سوف لن يتمالك نفسه حتّى يعود إلى وطنه.. أو أنّه على الأقلّ سيبقى على اتّصال دائم بأهله حتّى يطمئنّ على ابنه.. لكنّها لم تتوصّل بعد تفكير عميق ودقيق إلى طريقة مجدية لإعلامه بهذا النبأ.. حتّى الخطاب الوحيد الّذي بعثه لم يكن يحوي عنوانه..
دخلت بيتها تجرّ أذيال الخيبة.. مطأطئة رأسها.. فاستقبلتها كنّتها مستبشرة:
- عمّتي.. لقد طال غيابكِ.. هل كلّمكِ عبد الكريم؟
- ...
- ما بكِ يا عمّتي؟ ألم يتّصل عبد الكريم؟
- بلى.. اتّصل ويا ليته ما فعل..
- ماذا تقصدين؟ ماذا جرى؟ أخبريني..
- لا تخشيْ شيئا.. إنّه بخير والحمد لله.. لكنّني.. لكنّني لم أعلمه بحملكِ..
- ولِمَ لمْ تفعلي؟
- انقطع الخطّ فجأة..
- لا عليكِ.. المهمّ أنّنا اطمأننّا عليه..

- ألا يغضبك هذا؟
- وممّ أغضب؟ أنت لم تتعمّدي ذلك.. ثمّ إنّه سيعلم بالأمر إن عاجلا أم آجلا..
لكنّ المشكلة الّتي كانت الأمّ تريد حلّها لم تكن أن يعلم هو بالخبر بل أن يعود إلى دياره وخاصّة ألاّ ينسى أصله.. أمّا صفاء المسكينة فرغم أنّها كانت تصبّر حماتها إلاّ أنّها كانت هي ذاتها في أمسّ الحاجة إلى من يسلّيها إذ كانت تحسّ أنّ عبد الكريم نسيها تماما وانشغل عنها بأعماله ومصالحه هناك.. كانت تجلس كلّ ليلة تفكّر وتفكّر.. لو كان يحبّها لمَا تركها كلّ تلك المدّة دون أن يسأل عنها ولو أنّه سأل عنها أمّ ناظم في تلك المكالمة لأَعْلَمَتْهُ على الفور بحملها قبل أن ينقطع الخطّ.. لكنّه لم يفعل.. هذا ما كانت صفاء تفكّر فيه دائما.. كانت هذه الأفكار تتصارع دوما في رأسها ولم تكنْ أبدا قادرة على التّخلّص منها.. كيف تتخلّص منها؟.. كيف تتخلّص منها ولا دليل قادر على إقناعها بعكس ما يجول بخَلَدِها؟ حتّى أنّها سألت حماتها يوما:
- ألم يسألكِ عبد الكريم عنّي في تلك المكالمة؟
فتفطّنت عائشة بحنكتها وسرعة بديهتها لِما وراء السّؤال من معانٍ فأجابت على الفور:
- طبعا.. سألني عنكِ..
- ولِمَ إذن لم تعلميه بخبر حملي؟
- ألمْ أقلْ لكِ أنّ الخطّ انقطع؟
خفضت الفتاة رأسها وفي عينيها نظرة مزجت بين الخجل والأسف وعدم الاقتناع فأردفت عائشة:
- أنا أعرف أنّكِ حزينة لأجل ذلك يا عزيزتي.. لستُ بهذه الدّرجة من السّذاجة حتّى أصدّق لا مبالاتكِ بالأمر وأنا على يقين أنّك بدأت تخافين ممّا أنا خائفة منه خاصّة بعد مرور شهر كامل على اتّصاله الوحيد وقُرب ساعة الوضع..
- وممّ أنت خائفة يا عمّتي؟

- من أن ينسى عبد الكريم جذوره ويغرس له جذورا أخرى هناك بعيدا عنّا..

- وهل ستكون جذورا أقوى من الّتي كوّنها هنا؟

- كلاّ.. ستكون واهية.. ستذبل وتموت قبل أن تنمو زهور مستقبله في شجرة العمر..

ومرّت الأسابيع وأيقنت المرأتان أنّ انتظارهما للغائب لم تعد له جدوى تذكر فيئستا من عودته وتأكّدتا من وقوع ما خشياه.. فأمّا عائشة فنسيت أن كان لها ولد وألحقته بأخيه الّذي توفّي منذ سنوات.. لكنّ قلبها رغم ذلك لم يستطع نسيانه.. ظلّت دائما تذكره فتتناساه وآمنت أنّ الله عوّضها عنه بابنه الّذي سيولد قريبا.. وأمّا صفاء فقد حاولت أن تمحو صورته من مخيّلتها وأن تمسح كلّ دقيقة رأته فيها في الأسبوع الّذي سبق سفره لكنّ ابنها المنتظر حال دون ذلك فرأت أن تصبّ كلّ تفكيرها وجهدها في هذا القادم حقّا بإذن الله..

وأتت ساعة الوضع.. وحان موعد وصول الابن المنتظر.. شقّ صراخه سكون حياة المرأتين وأدخل الفرحة في قلوب كلّ سكّان القرية.. وانطلقت الزّغاريد.. وعمّت البهجة المكان.. يومذاك امتزجت دموع السّعادة بدموع الشّقاء في عين عائشة.. دموع السّعادة لقدوم حفيدها ودموع الشّقاء لغياب ابنها.. وقالت: «ها قد نفّذت وعدك يا حفيدي ولم يطُل غيابك لكنّ والدك لم ينفّذ وعده الّذي قطعه علينا.. طال غيابه كثيرا.. ومن الواضح أنّه لن يعود إلى هنا بعد الهناء الّذي وجده هناك..» .

وما إن وُلِد بشّار حتّى انقلبت حياة الأمّ والجدّة رأسا على عقب.. ملأ صياحه وبُكاؤه الجوّ حيويّة ونشاطا فلم تعُدْ حياتهما مملّة كما كانت فقد شغلهما ذلك الفتى الصّغير عن الدّنيا بأكملها وكان قدومه مبشّرا بكلّ خير وبركة إذ تعلّمت صفاء الخياطة فكثُرت الزّبونات وصارت عائشة تخيط فساتين

الزّفاف عوضا عن الملابس العاديّة الّتي لم تكن تجلب مالا وفيرا.. كانتا تربحان الكثير وتدّخران القليل ليوم الحاجة إذ كانتا تفكّران في مستقبل بشّار ومصاريف تعليمه فقرّرتا توفير أكبر مبلغ ممكن حتّى تقدرا على مجابهة مصاعب الحياة القادمة..

ومرّت السّنة الأولى والثّانية على ولادته وصار يتكلّم قليلا ويقول "ماما" أو "تيتا".. كلمة واحدة لم يتعلّم نطقها.. "بابا".. وذات يوم، جلست صفاء وأخذت تتحدّث مع حماتها وهي تذرف الدّموع السّخيّة:

- ماذا أقول له حينما يكبر ويسألني عن والده؟ هل أقول له أنّه مات؟ أم أخبره بالحقيقة المرّة؟ بأنّ والده رحل وتركني عروسة لم يمض على زواجها أسبوع واحد وأنّه لم يكلّف نفسه عناء الاتصال بأهله منذ رحيله.. هل أجعله يكره أباه قبل حتّى أن يعرفه؟

- ولِمَ يكرهه؟

- سيقول آنذاك أنّ والده لا يحبّنا وبالتّالي فمِنَ الطّبيعي أن يبادله نفس الشّعور..

- وهل تعتقدين أنّ عبد الكريم يكرهنا حقّا؟

- عبد الكريم لا يكرهنا.. عبد الكريم وجد دنياه هناك.. وجد عالما طالما حلُمَ بإيجاده فقطع كلّ الخيوط الّتي تربطه بالماضي بما فيه أصله وجذوره.. هو لم يقصد نسياننا لكنّنا غدونا جزءا من ماض طوى صفحته..

- ما خشيت وقوعه حصل يا صفاء..

- المهمّ الآن بشّار.. لا أريده أن يكبر وحالته النّفسيّة مضطربة.. حتّى وإن حاولت تعويضه عن حنان أبيه فإنّني لن أوفّق مهما فعلتُ.. ما دام الأب موجودا وغائبا في نفس الوقت..

- ولِمَ نحن منشغلتان بهذا الأمر؟ لا يزال الوقت مبكّرا على هذا التّفكير.. ما يزال بشّار صغيرا..

- أتمنّى من كلّ قلبي أن يعود عبد الكريم قبل حلول ذلك اليوم المشؤوم..

- تفاءلي يا صفاء..

كانت عائشة تنطق بهذه العبارة وهي أشدّ يأسا من كنّتها.. كانت مدركة بل ومتأكّدة من عدم رجوع ابنها.. «ترى أين أنتَ يا ولدي؟ وحشتني صورتك.. وحشني صوتكَ.. وحشتني دعابتك.. وحشتني ضحكتك.. وحشني غضبك.. عُد إلينا.. ليس لأجلي بل لأجل ولدك الّذي هو في أمسّ الحاجة إلى حنانك.. لو تتّصل بي لدقيقة واحدة فقط أخبرك فيها بحاجتنا لكَ.. يا ربّي أعذْه لي يا إلهي.. استجبْ لدعائي.. لرجاء عجوز مسكينة ضاقت بها السّبل فلم تجد لها حولا ولا قوّة إلاّ بك..» كانت المرأة تجلس كلّ ليلة على تلك الحال.. تتضرّع وتدعو الله أن يعيد إليها ابنها سالما.. وما من جديد.. ومرّت شهور وكبُر الفتى ولم يعد الأب من غربته..

وفي إحدى الأيّام.. سُمِع طرق على الباب.. وما هي إلاّ دقائق حتّى سُمِع صوت ارتطام جسم بالأرض.. هرعت عائشة إلى باب الدّار فرأت صفاءً ملقاة على الأرض مغشيّا عليها وبيدها ورقة.. إنّها ورقة الطّلاق!

الفصل السّادس

لبس الكسوة الّتي اشتراها بالأمس من المحلّ رفقة جاكو.. نظر إلى صورته في المرآة.. عدّل ربطة عنقه.. رشّ قليلا من العطر.. فتح الباب ونزل من البناية فوجد جاكو في انتظاره..

- هل تأخّرت عليكَ؟

- لا.. أبدا.. ربع ساعة فقط يا عبد الكريم..

- أنا آسف.. كنتُ..

- كنتَ أمام المرآة.. تجهّز نفسكَ للنّزول..

- وكيف عرفتَ؟

- أناقتكَ الواضحة وزيّكَ ورائحة عطركَ فضحت اهتمامكَ المفرط بنفسكَ.. اهتماما يفترض الوقوف مدّة طويلة أمام المرآة..

- حسنا.. قد برهنتَ على نباهتكَ..

- لا تنزعج.. ما تقوم به عاديّ خاصّة وأنّك تعمل عند السّير فرانكو.. وهذا أوّل يوم في عملكَ.. سيصبح الأمر مألوفا..

رَكَنَ السّيّارة أمام باب المطعم.. لكنّ عبد الكريم وعِوَض أن يفتح الباب لينزل فتحه ثمّ أعاد غلقه.. التفت إلى جاكو قليلا وهو يكاد يبكي:

- أتعلم؟ أحسّ أنّني أرتعد خوفا..

- لا تخش شيئا يا رجل.. ليس الأمر بهذه الصّعوبة..

- حقّا؟..

- حظّا سعيدا..

وحينما دخل المطعم لم يجد إلاّ ماكس واقفا في انتظاره..

- صباح الخير.. هل أتى السّير فرانكو؟

- الرّئيس لا يأتي إلاّ على السّاعة التّاسعة.. أمّا أنتَ فدقيق في مواعيدكَ..

- حسنا إذن.. هل أنتظره ساعة أخرى أم أبدأ عملي فورا؟

- تستطيع أن تبدأ عملكَ الآن.. كلّ الملفّات جاهزة على مكتبكَ منذ البارحة..

- حسنا..

أدرك عبد الكريم أنّ ماكس يراقب كلّ تصرّفاته وأفعاله ثمّ ينقلها إلى الرّئيس.. فحرص على أن يكون مثاليّا أمامه إلى أبعد الحدود حتّى يكسب ثقة وودّ السّير فرانكو.. أن يجعله الأداة المناسبة الّتي يدخل بها عالم الرّئيس ولِمَ لا يصير السّاعد الأيمن له عِوضَ ماكس.. «ستقتل نفسكَ بيديكَ يا ماكس» هذا ما أخذ عبد الكريم يفكّر فيه وهو في طريقه إلى مكتبه.. وعندما وصل.. فتح الباب ودخل وجلس على الكرسيّ الشّبيه بالأريكة فنسي نفسه وظنّ أنّه جالس فوق السّحاب.. أنّه فوق الجميع.. أنّه صار ذا منصب عالٍ.. أنّه حقّق أخيرا طموحه وجلس في المكان الّذي حلُم بالجلوس فيه.. لكنّه سرعان ما عاد إلى الواقع وأدرك أنّه ما يزال مجرّد موظّف تحت التّمرين.. وأنّه ربّما يجد نفسه غدا في العراق من جديد.. لكنّه تفاءل وقال في نفسه: «البداية طيّبة والقادم بحول الله أطيب..»

ومرّ الأسبوع الأوّل والثّاني ونجح عبد الكريم في نيل رضا رئيسه.. ومضت شهور سارت فيها أعمال المطعم على أحسن ما يرام.. وازدادت محبّة السّير فرانكو له ووعده بترقية..

وفي صبيحة يوم من الأيّام.. وبينما كان عبد الكريم صحبة جاكو ذاهبين بالسّيّارة إلى مقرّ العمل إذ بالسّائق يسأل رفيقه..

- لِمَ أنت مهموم يا عزيزي؟ ألم تنم جيّدا ليلة البارحة؟

- بل لم أنم البتّة..
- ولِمَ؟.. لا شكّ أنّك تفكّر في التّرقية الّتي وعدكَ بها السّير فرانكو..
- عن أيّة ترقية تتحدّث يا رجل؟ أتمزح أم تتغابى؟
- ما بكَ عصبيّ اليوم يا عبد الكريم؟ هل يزعجكَ شيء؟
- بُعْدِي عن أهلي.. لقد اشتقتُ إليهم..
- ألم تتّصل بهم منذ وصولكَ إلى هنا؟
- بلى.. مرّتين.. الأولى عبر البريد والثّانية كانت البارحة..
- البارحة؟ وتقول اشتقتَ إليهم؟
- أحسستُ في صوت أمّي نبرة غير معتادة.. أحسستُ أنّها أرادت أن تقول لي شيئا مهمّا قبل أن ينقطع الخطّ..
- انقطع الخطّ؟ ولِمَ لمْ تحاول الاتّصال مرّة أخرى؟
- حاولتُ ولم أنجح..
- يا لسعادة حظّي! أنا لا أهل لي ولا أصحاب في موريطانيا.. توفّي والداي وأنا في الخامسة من عمري فتكفّل بي عمّي الوحيد مدّة خمسة عشر عاما ثمّ توفّي هو الآخر وتركني أعمل بإحدى ورش النّجارة.. ثمّ أتيت إلى هنا.. لا يسأل عنّي أحد ولا أشتاق لأحد.. أنت ثاني صديق لي بعد ميشال.. تُرى هل مازال يذكرني؟
- سأحاول الاتّصال بأمّي اللّيلة أيضا.. ربّما نجحتُ..
- اسمع يا عبد الكريم.. إن ظللت هكذا فلن تستطيع العيش هنا.. عوّدهم قليلا على غيابك.. ولا تألف الاتّصال بهم كثيرا.. إن فطن السّير فرانكو بذلك فلن تكون عاقبتكَ جيّدة.. ستضيع كلّ أحلامكَ من أجل مكالمات هاتفيّة تضرّك أكثر ممّا تنفعكَ..
- تضرّني؟

- أجل.. ألم تر ماذا فعل بكَ الاتّصال الأوّل؟ صار بالكَ مشغولا وسيؤثّر تكرار هذا في شغلكَ طبعا..
- معكَ كلّ الحقّ فيما قلتَ يا جاكو..
- إنّها مجرّد نصيحة وعليكَ أنت الاختيار بين أهلكَ ووطنكَ وشغلكَ ومستقبلكَ..
- إنّها معادلة جدّ صعبة..

وظلّ عبد الكريم يفكّر ويفكّر.. هل يضحّي بشغله ويخسر حلمه بعد أن شارف على تحويله إلى واقع لطالما تمنّى تحقيقه؟ بعد أن وصل إلى منصب مهمّ واقترب من الوصول إلى منصب أهمّ.. يتراجع؟ يعود إلى الوراء؟ إلى نقطة البداية؟ نقطة الصّفر؟ يعود إلى بلاده.. إلى الفقر والكفاف والمهانة؟ إلى الجفاف بعد أن وصل إلى الشّلاّل؟ إلى القحط بعد أن لمس ماء العين الجارية بكلتا يديه؟ ومن أجل ماذا يفعل كلّ هذا؟ من أجل قيم لطالما سعى لتحطيمها في سبيل ضرورات الحياة؟ من أجل الحبّ والشّوق للعائلة والحنين إلى الوطن؟ وإن عاد.. ماذا سيفعل؟ سيشبع حبّا حتّى يكرهه وسينتهي الشّوق وسيضيع الحنين.. وماذا بعدئذ؟ لن يفعل بالحبّ شيئا.. لن يجلب مالا كثيرا يعيش به.. لن ينفعه الشّوق ولن يقدّم له وطنه أكثر ممّا قدّمه له من قبل.. مجرّد موظّف بسيط لا يكفي دخله حتّى لسدّ رمق العائلة.. كما أنّ طموحه لا يقف عند حدّ سدّ رمق العائلة.. طموحه لا حدّ له.. أن يركب سيّارة فخمة.. أن يسكن في قصر.. أن يجلب لأمّه الخدم.. أن.. أن.. أن.. هل من الممكن أن تضيع كلّ آماله؟ أن تطير على سحابة الحبّ والشّوق والحنين؟ على أوهام قيم واهية؟ إنّه حقّا لَلْجنون بعينه.. وما الّذي سيحدث لو تخلّى عن عائلته لبرهة من الوقت؟ لفترة يمسك فيها على الأقلّ بزمام الأمور في العمل.. وبعد ذلك سيتّصل بهم بين الفينة والأخرى حتّى يطمئنّ عليهم..

ولم يكن بالعسير عليه فعلُ ذلك مادام يعمل مع السّير فرانكو.. ظروف شغله وحدها قادرة على أن تنسيه كلّ الدّنيا.. ونفسه كذلك.. إذ دأب الشّابّ على العمل منذ الثّامنة صباحا حتّى الثّامنة مساء ما عدا ساعتين لتناول الغداء.. لم يكن متضايقا ولا مستاءً من عمله المرهق ورغم تعبه وإعيائه إلاّ أنّه كان حريصا على إرضاء رئيسه وتلبية كلّ أوامره لإثبات جدارته في الحصول على التّرقية ولكي يحصل على إعجاب السّير فرانكو الّذي كان مهتمّا به أشدّ الاهتمام ومقتنعا ببراعته في تسيير الشّغل ومعجبا بطاعته المبهرة.. وصار يوليه ثقة أكبر حتّى من ثقته في ماكس..

وبعد مُضيّ أشهر دأب عبد الكريم على زيارة السّير فرانكو في قصره أحيانا.. لم تعد بينهما مجاملات كثيرة إذ كان يفعل ذلك حينما يتغيّب الرّئيس عن المطعم فيضطرّ الشّابّ إلى أخذ بعض الوثائق للقصر حتّى يمضيها الرّئيس بنفسه.. وكان هذا الأمر يزيد في كره ماكس له إذ لم يكن مسموحا لأحد بدخول القصر باستثنائه.. وكان ماكس بهذا التّميّز الّذي حظي به محطّ أعين وحسد جميع من يعملون معه حتّى اعتُبِر السّاعد الأيمن الّذي لم يخُن الرّئيس يوما.. لذلك فعندما صار عبد الكريم يتردّد على السّير فرانكو دون إذن ماكس أكنّ ماكس للشّاب ضغينة شديدة وحقدا مردّهما الخوف منه..

وطفح الكيل في يوم من الأيّام..

في ذلك اليوم.. كان ماكس جالسا على إحدى الأرائك في غرفة الجلوس فيما كانت السّيدة ليزا زوجة الرّئيس وابنتها إليزابيت في الصّالون المواجه لباب القصر.. إذ بالجرس يرنّ.. فُتِح الباب ودخل عبد الكريم إلى البهو وتوجّه رأسا إلى الصّالون الّذي جلست فيه المرأتان فقال مسلّما:

- صباح الخير سيّدة ليزا..

- صباح الخير يا عبد الكريم..

- ألم يستيقظ السّير فرانكو بعد؟
- أنا ذاهبة حالا لأعلمه بمجيئك..
وغادرت السّيّدة الغرفة تاركة ابنتها مع عبد الكريم.. فبادرت الفتاة بالقول وكأنّها تذكّر عبد الكريم بشيء نسيه..
- صباح الخير..
- أنا آسف لم أسلّم عليكِ..
- لا عليكَ.. لا بدّ أنّك خجول.. تفضّل اجلس ما بكَ واقف؟ هل أنت مستعجل؟
- لا.. أبدا.. ولكن أ.. أنا بصدد انتظار السّير فرانكو..
- أجل.. من عادة أبي أن يتأخّر قليلا في النّهوض صباحا..
- والدكِ؟
- نعم.. ألمْ تكُن تعلم أنّني إليزابيت ابنة السّير فرانكو؟
- عفوا.. ولكن هذه هي المرّة الأولى الّتي أراكِ فيها هنا..
- معكَ حقّ.. كنتُ عند خالتي في شيكاغو.. أنتَ ولا شكّ عبد الكريم مدير أحد مطاعم أبي.. لقد حدّثنا عنكَ والدي كثيرا ليلة البارحة..
- البارحة؟
- عندما وصلتُ وجدته يتحدّث عنكَ.. يبدو أنّك قد نلتَ إعجابه..
- ...
- هل أنت معتاد على زيارته يوميّا؟
- لا.. ليس دائما.. فقط عندما يكون عندي أوراق تستوجب إمضاءه..
وبينما هما جالسان هكذا إذ بماكس يُدْخِلُ رأسه فجأة ويُطِلّ من باب الصّالون.. عندها التفتت إليه إليزابيت قائلة بلهجة السّاخر: «نعم.. هل من خدمة؟» ثمّ في لهجة حادّة وشديدة: « مَنْ سمح لكَ بالدّخول بدون إذن؟» عندها ألقى

ماكس على عبد الكريم نظرة تختزل كلّ معاني الكره والضّغينة وتحمل في طيّاتها الحقد والنّقمة ثمّ غادر المكان دون أن ينبس ببنت شفة.. عندئذ أحسّ عبد الكريم بحساسيّة الموقف فوقف قائلا:

- أستأذن.. سأنتظر الرّئيس في البهو..

- أنا حقّا آسفة.. ماكس ذاك إنسان مخبول.. لم أعلم إلى الآن سرّ محبّة أبي له..

- لا بأس.. يجب عليّ الذّهاب..

- أنا أعتذر لأنّني أثقلت كاهلك بحديثي..

- لا.. لا تقولي هذا أرجوك.. على العكس تماما.. الجلوس معكِ ممتعٌ..

- إذن.. فأنتَ لست غاضبا منّي؟..

- أغضب منكِ؟.. طبعا لا..

- حسنا.. لقد نزل أبي..

مدّت يدها لتصافحه فاستغرب هو للأمر.. وارتعشت يده قليلا قبل أن يمدّها لها كي يصافحها.. فقالت له: «نحن الآن صرنا أصدقاء.. اتّفقنا؟» ودون أن تنتظر الإجابة خرجت من الباب الخلفيّ المطلّ على حديقة القصر.. تاركة الشّابّ مذهولا في حيرة من أمره.. وما إن بدأ يستعيد وعيه وهمّ بالجلوس من جديد حتّى دخل السّير فرانكو مستعدّا لإمضاء أوراقه..

وخرج عبد الكريم من القصر.. وركب السّيّارة بجانب جاكو..

- إيه.. عبد الكريم..

- نعم.. ما بكَ تصرخ يا جاكو؟

- أصرخ؟ أنا أناديكَ منذ خمس دقائق وأنت لا تسمعني.. وتسألني لِمَ أصرخ؟

- منذ خمس دقائق؟

- أجل.. أين كنتَ يا رجل؟

- كنتُ في بيت السّير فرانكو..
- أعرف ذلك.. أنا أقصد أين شرد بكَ ذهنكَ؟..
فتمدّد عبد الكريم في الكرسيّ وعقد يديه وراء رأسه وشخص ببصره في سقف السّيّارة وقال بصوت حالم:
- قد فهمتُ قصدكَ وأجبتكَ عليه بوضوح..
- ماذا تعني؟ أنا لا أفهم شيئا..
- يا لها من فتاة!
- عمّن تتحدّث؟ عن زوجة السّير فرانكو؟..
- بل عن ابنته يا أبله..
- ابنته؟ هل عادت من شيكاغو؟
- لِمَ لمْ تُعلمني بأنّ للسّير فرانكو ابنة من قبلُ ما دُمتَ تعرفها على ما يبدو؟
- لم أكن أعتبرها موجودة.. إنّها تعيش مع خالتها منذ ثلاث سنوات تقريبا.. ولا تأتي إلى هنا إلاّ بين الفينة والأخرى..
- أتقصد أنّها قد تعود إلى شيكاغو ثانية؟..
ولم يغمض له جفن في تلك اللّيلة.. كانت صورة إليزابيت محفورة في ذاكرته لا يمحوها شيء.. وكان خوفه أن ترحل إلى شيكاغو مسيطرا عليه ومحيطا بكلّ أحاسيسه.. وعندما أصبح، اتّصل بجاكو وطلب منه الحضور على الفور.. وما هي إلاّ دقائق حتّى قدم الرّجل..
- صباح الخير يا عبد الكريم.. ماذا بكَ يا صديقي؟ هل حدثت لكَ مشكلة ما؟..
- لا لم تحدث معي أيّة مشكلة..
- إذن ما الّذي جعلكَ تتّصل بي في هذه السّاعة المبكّرة وأنت تعرف أنّ اليوم أحد؟..
- أنا جدّ آسف يا جاكو.. لكنّني حقّا أعتبرك أخي الوحيد في هذا البلد الموحش.. وأحسّ أنّك الوحيد الّذي يمكنني أن أفتح له قلبي..

- أنا فعلا أخوكَ يا عبد الكريم.. لكن تكلّم.. لقد أقلقتني..
- أنا.. أنا.. أحبّ فتاة..
- ومن هي هذه الفتاة؟ ثم ما يهمّني أنا؟ أ لهذا أيقظتني من نومي وجلبتني كالمجنون؟ حرام عليكَ يا أخي ما تفعله بي..
- هل الموضوع بهذه التّفاهة بالنّسبة لك؟
- هو أتفه من أن يجعلك بهذا الشّكل المزري.. ذقن غير محلوق.. وجه أصفر.. عينان محمرّتان.. سترة مفتوحة.. ما هذا يا عزيزي؟ لا بدّ أنّك لم تنم البتّة طول اللّيل.. لم تكن على هذا الحال بالأمس.. هل أحببتها البارحة؟
- أرجوك لا تسخر منّي.. ثمّ إنّك لم تعرف بعدُ مَن هي..
- ومَن تكون سعيدة الحظّ هذه الّتي جعلت عبد الكريم..
- إنّها إليزابيت..
فقاطعه جاكو متهكّما..
- إليزابيت تايلور؟
- بل إليزابيت كازاني..
وما إن سمع جاكو اسمها حتّى صُعق ثمّ قال متسائلا وكأنّه يصحّح معلومة أو يتثبّت من الشّخصيّة الّتي يعنيها محدّثه:
- إبنة السّير فرانكو؟
- أجل..
عندها ترك جاكو المقود ووضع يديه على رأسه وكأنّ مصيبة توشك أن تقع وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة من هو غير مصدّق أبدا لما تسمع أذناه:
- أنتَ حقّا مجنون.. بل حتّى المجنون لا يفعل هذا..
- ومنذ متى كان الحبّ جنونا؟
- ليس الحبّ جنونا.. بل حبّ إليزابيت بالذّات هو الجنون بعينه..

- ولِم تقول هذا؟
- قد جرّب غيرك حظّه ولم يستفد شيئا بل خسر أشياء كثيرة..
- من تقصد؟
- ماكس.. كان يحبّ هذه الفتاة إلى حدّ الجنون.. وعندما تقدّم لخطبتها هدّده والدها بأن يفصله عن عمله إن كرّر طلبه ذاك.. لكنّ ماكس مازال لم يستسلم إلى الآن.. لذلك تراه حريصا على إرضاء الرّئيس بكلّ جهده حتّى يحاول مرّة أخرى ربّما أو..
- الآن فقط فهمت سرّ ذلك الموقف..
- أيّ موقف؟
- بالأمس دخل إلى الصّالون فوجدني أتحدّث معها فرمقنا بنظرة غريبة ثمّ انصرف تحت طلب إليزابيت..
- إنّها الغيرة.. لكنّني أنصحك يا عبد الكريم.. لا تتهوّر.. حلمك هذا صعب.. بل مستحيل.. لن يتركك والدها تفعل شيئا.. وإن تركك فستجد ماكس حجر عثرة في طريق سعادتك معها..
- هل ترى الآن أنّ الأمر ليس تافها كما تصوّر لك في البداية؟

ومرّت الأيّام والأسابيع وصار عبد الكريم دائم التّردّد على بيت السّير فرانكو ودائم اللّقاء بإليزابيت حتّى توطّدت العلاقة بينهما فصارا صديقين حميمين.. كلّ هذا وعبد الكريم حريص على ألاّ يبقى الأمر سرّا وأن يعلم خاصّة السّير فرانكو بكلّ ما يحدث حتّى لا يسحب منه ثقته.. لكنّ الرّئيس كان يظنّ أنّ عبد الكريم هو مجرّد صديق من أصدقاء ابنته الكثيرين بل على العكس كان سعيدا بتلك الصّداقة الّتي شدّت ابنته إلى نيويورك وجعلتها قلّما تفكّر في العودة إلى شيكاغو.. لكنّه كان يجهل أنّ تلك الصّداقة ما هي إلاّ بذرة حبّ أخذت تنمو رويدا رويدا مع الأيّام..

وشارفت عطلة الصّيف على الانتهاء.. وكان على إليزابيت أن تجمع أدباشها حتّى تعود أدراجها إلى بيت خالتها في شيكاغو إذ لم تبقَ إلاّ بضعة أيّام وتنطلق السّنة الدّراسيّة الجديدة.. في صباح يوم سفرها.. وقفت إليزابيت أمام المطعم بسيّارتها في انتظار خروج عبد الكريم.. وعندما رآها تفاجأ لذلك.. طلبت منه الصّعود وتوجّهت من فورها إلى أقرب كافيتيريا.. ولم يكنْ عبد الكريم يفهم شيئا..

اختارت طاولة وجلست ووضعت وجهها بين كفّيها وانفجرت تبكي..

- ما بكِ يا إليزابيت؟ ما بكِ تبكين؟ أجيبيني أرجوك..

- في المساء.. سأسافر..

- إلى أين؟

- إلى شيكاغو..

- ولماذا؟

- لأكمل دراستي..

- ولِمَ لا تكملينها هنا؟ أرجوك يا إليزابيت لا ترحلي.. أنا لم أعد أطيق العيش هنا بدونكِ.. أنا.. أنا أحبّك.. يا إليزابيت.. ولولا خوفي من والدكِ ومن أن يصير معي مثلما حصل مع ماكس لطلبتُ يدكِ فورا..

- هل ما تقوله صحيح؟

- وكيف أثبتُ لكِ صحّة قولي؟

- تنفّذ ما قلته.. اسمع.. سأطلب من والدي أن ينقل أوراقي إلى هنا وأن أدرس في نيويورك.. وبهذا الطّلب فقط سأجعله يوافق على خطبتنا..

- وكيف ذلك؟

* * *

ما إنّ دقّت السّابعة مساء حتّى سُمِع صوت هدير سيّارة إليزابيت.. وما هي إلاّ لحظات حتّى فُتِح الباب ودخلت الفتاة مبتسمة والبشر يعلو قسمات وجهها.. وتوجّهت نحو الصّالون

أين كان الوالدان يجلسان.. وما إن ألقيا نظرة على القادمة نحوهما حتّى وقفا من الدّهشة وقال الأب:

- إليزابيت.. ألم تسافري إلى شيكاغو على متن الطّائرة الّتي أقلعت منذ ساعتين؟

- لا.. يا أبي.. لم أفعل..

- لم تفعلي؟ ليس من عادتكِ أن تغيّري مواعيدكِ فجأة.. هل قرّرت السّفر صباحا؟

- كلاّ.. لكن، قلْ لي يا أبي ألا زلتَ تذكر ذلك الوعد الّذي قطعته على نفسكَ منذ ثلاث سنوات؟

- عن أيّ وعد تتحدّثين؟ أنا لا أذكر شيئا..

- أ لم تقلْ أنّك تريدني أن أبقى بنيويورك وأنّك ستنفّذ طلبات الشّخص الّذي يستطيع إقناعي بهذا؟

- نعم أذكر وأنا لازلت عند وعدي.. لكن ما دخل هذا الموضوع بحكاية سفركِ؟

- لقد وجدت الشّخص الّذي أقنعني بالبقاء هنا.. وهو لا يطلب منكَ إلاّ شيئا واحدا..

وعندها التمع في عين الأب بريق امتزج فيه الأمل بالفرحة.. لم يكن مصدّقا لما يسمعه.. أمسك بابنته من ذراعيها وكأنّه يخشى أن تعدل عن قرارها هذا الّذي طالما انتظره بصبر نافذ.. ثمّ ضمّها إليه قائلا والدّموع توشك أن تنزل على خدّيه:

- هل ما تقولينه صحيح؟ أخيرا ستعودين إلى بيتكِ وأهلكِ يا عزيزتي؟ إلى والديْكِ؟ لكنْ، أخبريني من هو الّذي قدر على فعل هذه المعجزة وأنا أقدّم له كلّ ما يطلبه من دولار إلى مائة ألف دولار..

- لكنّه يطلب أكثر من هذا..

- سأقدّم له نصف ثروتي إن أراد..

- هو لا يريد شيئا من ثروتكَ.. إنّه يريد ابنتكَ..

عندئذ تغيّرت نبرة صوت السّير فرانكو من نبرة المغتبط إلى نبرة الغاضب.. قطّب حاجبيه.. عبس جبينه.. ضغط على أضراسه.. امتلأت عيناه شرّا لكنّه لم يعلن رفضه القاطع للمفاوضات وخيّر إظهار الهدنة فقال بصرامة واختصار لم يخفيا عن ابنته..

- ومن هو هذا المجنون؟

- عدني أوّلا أنّك ستنفّذ طلَبَه..

- حسنا.. أعدكِ..

- إنّه.. إنّه عبد الكريم..

- ماذا تقولين؟ هل جُننتِ؟

- ولماذا جُنِنتُ؟ أنا أحبّ عبد الكريم وهو كذلك يحبّني.. وهو إنسان عاقل ورصين وكفء في عمله.. ثمّ إنّه لم يخنْ ثقتكَ يوما.. كان دائما حريصا على إرضائك حتّى أنّه طلب منّي ألاّ نخفي عنكَ تعلّقنا ببعض فكانت كلّ لقاءاتنا على مرأى ومسمع منكَ ومن أمّي.. ما سرّ اعتراضكَ عليه إذن؟ أفهمني..

- ألم تجدي غيره؟

- لا تنسَ أنّه الوحيد الّذي قدر على إقناعي بالبقاء هنا.. فإن رفضت زواجنا فسوف أرحل ولن ترى وجهي البتّة في حياتكَ..

قالت هذه الكلمات وصعدت السّلّم مسرعة إلى غرفتها تاركة آثار دموعها على السّجّاد الأحمر المفروش على المدارج.. عندئذ تهالك السّير فرانكو على أريكة بجانبه وظلّ كالتّائه لا يدري ما يفعل.. لم يكن يريد لابنته أن تفارقه أبدا.. كان يحبّها كثيرا ولا يطيق ابتعادها عن نظره دقيقة واحدة لذلك جُنّ جنونه وكاد يفقد عقله حينما هربت إلى بيت خالتها في شيكاغو جرّاء ضغطه عليها وحرصه الشّديد والدّائم على ألاّ تبتعد عنه.. كيف إذن سيقدر على فراقها مرّة أخرى بعد أن عادت له أخيرا؟.. وبعد تفكير ولأي أُعجِب الأب بالفكرة.. فابنته مصيرها في النّهاية الزّواج إن عاجلا أم آجلا فإن

تزوّجت أمريكيّا فمن المؤكّد أنّها سترحل معه إلى بيته أمّا إن تزوّجت عبد الكريم فإنّ عبد الكريم سيرضخ لمشيئة رئيسه ويسكن معه في القصر وهكذا فلن تبتعد إليزابيت عن عينيه ولكنّه في تلك اللّحظة تذكّر أمرا مهّما.. أمرا مهمّا للغاية..

وبينما كانت إليزابيت جالسة مهمومة في غرفتها إذ بهاتفها يرنّ.. إنّه عبد الكريم..

- آلو.. عبد الكريم..

- ما بكِ يا إليزابيت؟ لِمَ أنتِ تبكين؟

- أبي.. أبي لم يوافق على زواجنا..

- اسمعي يا إليزابيت.. أريد أن ألقاك غدا بعد الظّهر في الكافيتيريا المعتادة.. هناك أمر مهمّ يجب أن أعلمَكِ به..

- وماذا سنفعل مع أبي؟

- لا عليكِ.. سنبحث الموضوع غدا.. تصبحين على خير..

أجل كيف غاب عنه هذا الأمر؟ كيف نسي صفاء؟ لا يمكنه أن يتزوّج اثنتين وهو في أمريكا.. يجب أن يتنازل عن إحداهما.. هل يتنازل عن صفاء؟ بهذه السّهولة؟ يتركها سنتين كاملتين تنتظره ثمّ يُلقِي بها عرض الحائط؟ ما هذه الأنانيّة؟ وأمّه؟ هل سترضى بهذا؟ وماذا عن إليزابيت؟ هل يتراجع عن قراره في الزّواج بها ويعلمها بالحقيقة؟ يا لها من متاهة لا مخرج منها! لكنّ زواجه من إليزابيت ضروريّ.. إنّه الضّامن الوحيد لاستقراره الفعليّ في ذلك البلد الّذي يضيع فيه كلّ من لا يصنع له جذورا في أرضه الجرداء.. علاوة على أنّ الزّواج من إليزابيت فرصة لا تعوّض خاصّة وأنّه تعلّق بها حقّا ولا يريد التّفريط فيها.. لذلك فعليه أن يعلمها بالأمر قبل أن يعلمها والدها وتنتهي الحكاية إلى أسوأ مآل..

لكنّ السّير فرانكو لم يكُن ينوي فعل ذلك حقّا إذ أنّه لم يُرِد في تلك اللّحظة أن يقطع آخر أمل يربط ابنته بنيويورك.. هو يعرف تماما ردّة فعلها.. ستفقد نهائيّا ثقتها في كلّ النّاس

وستقرّر العودة إلى شيكاغو إلى الأبد.. وكان خوفه من أن تغيب عن ناظره مرّة أخرى يكتم على أنفاسه وينغّص عليه حياته.. فقد كانت إليزابيت فتاة مدلّلة واندفاعيّة إلى أبعد الحدود.. كانت تريد لكلّ طلباتها أن تحضر.. لذلك كانت ردّة فعلها أن انتقلت للعيش مع خالتها حينما أبى والدها إلاّ أن تدرس التّجارة بينما كانت هي تريد دخول كلّيّة الحقوق..

وفي ظهر الغد.. جلس الإثنان ولكلّ منهما حديث كثير يريد قوله:

- اسمعي يا إليزابيت.. لقد طلبتُ مقابلتكِ لأمر مهمّ.. إن ساعدتني وتفهّمت موقفي فسنصل إلى مبتغانا وإن عاندتني وأبيتِ مساعدتي فسنخسر كِلانا..

- ثقْ يا عزيزي أنّني معكَ دائما.. تكلّم..

- حسنا.. أنا.. أنا متزوّج..

- ماذا؟ أَ كُنتَ إذن تخدعني طوال هذه المدّة؟

- لا تقاطعيني أرجوكِ دعيني أكمل حديثي.. تزوّجتُ قبل زهاء أسبوع من قدومي إلى هنا.. وكان زواجي تحت ضغط وتأثير أمّي.. أي أنّني لم أكن مقتنعا به.. بدليل أنّني نسيتُ صفاء منذ قدومي ولم أحادثها حتّى في الهاتف.. صدّقيني يا عزيزتي.. أنا لم أخدعكِ يوما.. تصوّري أنّني لم أكن أعتبر نفسي متزوّجا حتّى أنّني شارفتُ على نسيان شكل زوجتي وملامحها..

- فعلا.. أنا مجبرة على تصديقك..

- مجبرة؟

- أجل.. لأنّي أحبّك.. لكنّني أخشى أن تستغلّ حبّي لك حتّى..

- أنا الآخر أحبّك.. ولتذكري دائما يا عزيزتي أنّي أحبّك لأنّك إليزابيت.. وليس لأنّك إليزابيت كازاني..

- وما هو الحلّ الآن؟ ألن نتزوّج؟

- بلى سنتزوّج.. وسأطلّق صفاء إن اقتضى الأمر..

- الأمر يقتضي ذلك طبعا..
- حسنا إذن.. سأشرع في اتّخاذ الإجراءات اللاّزمة غدا..
- وماذا عن والدي؟
- هل رفض زواجنا رفضا قاطعا؟
- لا.. تركته يفكّر على ما يبدو..

لكنّ تفكير السّير فرانكو لم يطل كثيرا وتمّت جميع الإجراءات واستعدّ الجميع لحفل الخطوبة الّذي سيجمع عبد الكريم سليمان وإليزابيت كازاني..

الفصل السّابع

وتمّ الزّواج ومرّ شهر العسل ومرّت بعده شهور كثيرة عاش فيها عبد الكريم مع أهل زوجته في ذلك القصر الكبير.. الواسع.. الفارغ.. البارد.. ليلتها جلست إليزابيت على كرسيّ هزّاز قُرب المدفئة تطالع كتابا ثمّ نظرت إلى النّار المتّقدة بجانبها وقالت لعبد الكريم الّذي كان يتصفّح بعض الوثائق الخاصّة بعمله وعيناها ما تزالان عالقتين باللّهب..

- أتعرف يا عبد الكريم؟ معكَ فقط عرفت معنى دفء الأسرة.. حينما كنتُ أعيش مع خالتي في شيكاغو كان الشّعور بالغربة الّذي ينتابني أحيانا فظيعا.. رغم أنّها كانت حريصة على إسعادي وساهرة دائما على راحتي إلاّ أنّني كنتُ أحسّ أنّ شيئا ما في داخلي ينقصني.. إنّه الحنان.. كنتُ أفتقر إلى حنان والديّ وعطفهما عليّ.. كنتُ في أمسّ الحاجة إليهما لكنّ عنادي وكبريائي منعاني من العودة إليهما.. ورغم كلّ شيء كنتُ أحسّ تجاههما بالذّنب، لذلك تراني أعود إلى نيويورك في أيّام العطل ولم أكن أمكث هنا أكثر من أسبوع حتّى التقيتك فبدّدت كلّ الظّلمات وصرتُ أعرف طعم الحنان ودفء الحياة..

كان عبد الكريم ينصت لكلّ ما قالته زوجته باهتمام ويقول في نفسه: «أمّا أنا فقد نسيت هذا الطّعم ونسيتُ معه أسرتي منذ ما يناهز عن الثّلاث سنوات.. ونسيتُ جذوري هناك في العراق.. وصرت إنسانا آخر بجذور مزيّفة.. أصلي ميّت وحاضري غامض ومستقبلي مجهول.. هل سأعيش مدى الحياة هنا؟ أ لن أحقّق لأمّي ما وعدتها به وما سافرت لأجله؟ وأين هي أمّي الآن؟ هل هي بخير يا ترى؟ هل أتّصل بها لأطمئنّ عليها؟»

الآن فقط تذكّرت أنّ لكَ أمّا تتّصل بها وتسأل عن أحوالها؟ بعد ثلاث سنوات من النّسيان؟ كفاكَ هراء يا رجل!

قد بدأت طريقكَ ولا بدّ لكَ من إتمامه دون الالتفات إلى الوراء.. ما فات فقد فات.. لا تزرع الأمل من جديد في قلب أمّكَ المسكينة بعد أن دفنتْه ولا تنبش في قبر الماضي السّعيد فلن تجني من وراء ذلك إلاّ الحسرة والأسف والنّدم الشّديد..

وعندما أفاق من أفكاره تلكَ وجد إليزابيت ممدّدة بجانبه على السّرير وهي تغطّ في نوم عميق كالقطّة الوديعة، فحسدها على تلقائيّتها وبساطتها ثمّ عاد من جديد إلى وثائقه يراجعها..

ولم يجدّ في الأمر جديد طيلة مدّة طويلة حتّى انتهى صيف ذلك العام.. وبتساقط أوراق الشّجر الصّفراء أنجبت إليزابيت فتاة سمّتها "ماري".. وُلِدَت شقراء الشّعر كأمّها، بنّيّة العينين كوالدها.. وكان عبد الكريم مولعا بها يدلّلها ويلعب معها ويحرص عليها أكثر من حرصه على عينيه.. ملأت الحياة في ذلك القصر جوّا وحيويّة وقطعت الرّتابة الّتي كانت تعمّه وأدخلت الفرحة واللّهو في قلوب الجميع كبيرهم قبل صغيرهم وعوّضت حياة الملل والقلق بحياة مفعمة سرورا وانشراحا..

لكنّ السّعادة لم تدم طويلا.. بل لم تدم أبدا.. كان حبل الهناء قصيرا.. أقصر ممّا كان الجميع ينتظر.. لم يكن يخيّل لأحد أنّ تلك السّكينة والطّمأنينة الّتي عاشتها العائلة في خلال ذلك الشّهر ما كانت إلاّ حالة الهدوء الّذي يسبق العاصفة!.. وأيّة عاصفة؟.. عاصفة هوجاء أخذت معها كلّ شيء وجرفت في تيّارها كلّ اللّحظات الحلوة..

في صباح ذلك اليوم كان عبد الكريم يعقد ربطة عنقه.. وكانت إليزابيت تغلق النّوافذ والسّتائر خوفا على ابنتها النّائمة في المهد من النّسيم رغم دفء الطّقس.. وكان السّير فرانكو وزوجته يستعدّان للنّزول من غرفة النّوم.. إذ بباب القصر يطرق طرقا عنيفا والجرس يرنّ في صوت مزعج.. ثمّ سمع صوت أحدهم يصرخ بكلّ قوّته ويزمجر..

- أُتركني.. دعوني أدخل.. الآن صرت أطلب منكم إذنا بالدّخول يا سفلة؟ ألا تعرفون من أنا؟ أم أنّ حلول ذلك العربيّ مكاني أنساكم وجودي؟

- ارحل من هنا يا ماكس.. السّير فرانكو ما يزال نائما ولا يستطيع مقابلة أحد..

- لكنّه أمر في غاية الأهمّيّة.. إنّها مصيبة..

- حسنا.. انتظر هنا قليلا..

كان السّير فرانكو يستمع لكلّ الحوار الدّائر بين ماكس والحارس.. وكان يعرف تماما شخصيّة ماكس المندفع المتحمّس.. الثّائر دائما.. لكنّه يعرف تماما أنّه لن يقدر على فعل كلّ ما فعله أمام القصر إلاّ لسبب هامّ بل خطير.. فما كان منه إلاّ أن أشار على الحارس بإدخاله فورا.. وما هي إلاّ برهة قصيرة حتّى ظهر ماكس بوجه مصفرّ وعينين جاحظتين وشعر غير مسرّح وذقن غير محلوقة وثياب يبدو واضحا أنّه ارتداها وهو في عجلة من أمره..

- هل بعدَ كلّ العشرة الّتي جمعتنا تجعل الحرّاس يقفون في وجهي ويمنعونني من الدّخول؟

نظر إليه السّير فرانكو طويلا ثمّ أجابه في نبرة يكتنفها الضجر مشيحا عنه بوجهه..

- هاتِ ما وراءكَ بسرعة..

- البلد يحترق والنّيران تأكل كلّ ما يعترض سبيلها من أخضر ويابس..

- عمّ تتحدّث يا رجل؟ أفهمني ماذا تقصد..

- لا أعلم ما الّذي وقع تحديدا لكن كلّ ما أعرفه أنّ المطعمين الفخمين الموجودين بمركز التّجارة احترقا ولم يبق منهما شيء..

- هل أنت واثق ممّا تقول؟

- للأسف نعم.. اتّصل بي جاكو منذ قليل وأعلمني بالأمر فهرعت إلى مكان الحادث وتأكّدت بنفسي..

فنطق السّير فرانكو في هلع واضعا كفّيه على رأسه..
- مصيبة.. كارثة.. يا للخسارة الفادحة!..
هرولت إليزابيت إلى التّلفاز تفتحه فتبيّنت لها معطيات ما وقع واتّضح جليّا أنّها كانت حادثة ارتطام لطائرتين بمركز التّجارة ولم يكن الأمر حادث حريق كما ظنّ ماكس في البداية..
وتعدّدت الأسباب والنّتيجة واحدة.. كارثة.. خسائر وآلام..
ومنذ ذلك اليوم بدأت المشاكل.. صار السّير فرانكو عصبيّا أكثر من العادة.. وسريع الغضب.. لم تعُدْ له ثقة في أحد.. صار يشكّ في جميع من حوله.. حتّى في عبد الكريم.. بل لم يعد يكنّ له ذلك الودّ كما كان من قبْلُ خاصّة بعد أن انفجر المطعم الّذي يديره وبات عاطلا عن العمل.. صار يمثّل عالة على السّير فرانكو –أو قُلْ هكذا كان السّير يحسّ- وعبئا على العائلة رغم وفرة ثروتها وكثرة أموالها.. لكنّ السّير فرانكو كان يحسّ أن ذلك الشّاب خدعه.. أنّه استغلّ حبّ إليزابيت له حتّى يدخل عالم الأعمال والأموال من أوسع أبوابه.. وربّما كان طامعا في تلك الثّروة.. ولِمَ لا؟ وتداخلت أحاسيس السّير فرانكو واختلطت عليه الأمور وبدأ الشّكّ يساوره وبدأت الوساوس تنخر قلبه وعقله.. وأخذ يبحث بشتّى الوسائل عن طريقة يبعد بها عبد الكريم عن سبيله دون أن تُحسّ ابنته بشيء لكنّه لم يقدر.. إذ لم يترك الفتى ثغرة في علاقته بصهره إلاّ وسدّها ولا مسألة إلاّ وحلّها ولا عقدة إلاّ وفكّها ولم يترك للسّير فرانكو فرصة يستغلّها للتخلّص منه..
ومرّت الأسابيع والبلاد ما تزال في حالة يُرثى لها.. جلّ المطاعم مقفلة والأشغال متوقّفة والبحث جارٍ لمعرفة هويّة الفاعل والنّاس خائفون من حدوث تفجيراتٍ أخرى.. وصدرت أوامر بترحيل كلّ أجنبيّ عن البلاد إلى وطنه.. ما عدا المتحصّلين منهم على الجنسيّة الأمريكيّة.. ولم يكن عبد

الكريم منهم.. وقرّر السّير فرانكو انتهاز الفرصة.. وكانت ليلة..

تمطّى السّير فرانكو في جلسته وأشعل غليونه بحركة رسميّة.. جذب منه النّفس الأوّل ثمّ نظر إلى عبد الكريم نظرة ملؤها الثّقة والحذر ثمّ قال موجّها له عصا الغليون في تعالٍ فضحته نبرات صوته..

- أ تعلم يا عبد الكريم أنّ عليك الرّحيل إلى بلدكَ في أقرب وقت ممكن؟

عندها أجاب عبد الكريم في هدوء وثقة..

- أعلم.. ولكنّي أتوسّم فيك نبلك كي تتركني أعيش هنا مع زوجتي وابنتي..

- أنا لا أستطيع مخالفة القانون..

- وهل أنت مستعدّ للتّضحية بسعادة ابنتك وحفيدتك مقابل تطبيق القانون؟ يا للوطنيّة..

كانت إليزابيت واقفة بالمصادفة وراء باب المكتب.. أنصتت لكلّ الحديث الّذي دار بين والدها وزوجها وما كان منها إلاّ أن تهالكت على مكتب والدها..

- أرجوك.. أرجوك يا أبي.. أتوسّل إليكَ.. اتركنا نعش بسلام.. سنجمع أدباشنا ونرحل من هنا.. ولا نطلب منكَ سوى تركنا ونسياننا..

وضع السّير فرانكو سبّابته على فمه مفكّرا وكظم غيضه.. كان ينظر إلى زوج ابنته في اشمئزاز.. لم يكن يتصوّر حياته خالية من ابنته وحفيدته.. لكنّه في المقابل لم يكن أبدا قابلا للاستسلام..

وانتقل عبد الكريم للعمل في مطعم آخر بمرتّب أقلّ بكثير من الأوّل بل بدون مرتّب تقريبا إذ كان معظمه ينفق في تسديد الدّيون.. وصول أمانة بثمن الشّقّة القديمة ووصول أخرى بثمن السّيّارة الفخمة الّتي اقتناها منذ سنة..

* * *

ومرّت سنة وقدمت أخرى.. وكانت العلاقة تزداد سوءا يوما بعد يوم.. حتّى ذلك الصّباح.. فتح عبد الكريم جهاز التّلفاز فراعه ما رأى في نشرة الأخبار.. تمثال.. يعرفه.. أجل يعرفه.. والسّاحة كذلك يعرفها.. ما بالتّمثال يسقط؟ أناس محتشدون.. لم يكن المكان غريبا عنه.. بل كان يعرفه تمام المعرفة.. إنّها بغداد!.. ما الّذي يحدث؟ أجل.. نفّذت أمريكا وعدها.. وعدها؟ بل قلْ وعيدها.. ما الّذي سيعقب هذا المشهد يا ترى؟ وفجأة لمعت في ذهنه صورةٌ لمعانَ البرق في ليلة شتويّة.. «أمّي! كيف هي الآن؟ ما هي فاعلة هناك يا ترى؟ هل هي بخير؟ يا لي من ابن عاق.. أكثر من أربع سنوات ولا أسألْ عن أحوالها؟.. يجب أن أتّصل بها فورا حتّى يطمئنّ قلبي..» رفع السّمّاعة وأدار رقم سعيد.. لم يزل ذلك الرّقم عالقا بذهنه ومتشبّثا بباله رغم مرور السّنوات.. انتظر قليلا سماع صوت الجرس لكنّه لم يسمع إلاّ.. «هذا الرّقم خارج الخدمة.. الرّجاء التّثبّت من صحّته وتكرار المحاولة..» استغرب عبد الكريم للأمر إذ لم يكن لينسى أبدا رقم هاتف أعزّ أصدقائه وأقرب جيرانه أو حتّى يخطئه.. لكنّه رغم ذلك أعاد المحاولة فتكرّرت نفس العبارة .. عندها انتابه القلق والهمّ وخشي أن يكون مكروه ما أصاب سعيدا أو عائلته أو.. لم يكن يستطيع حتّى التّفكير في الأمر..لم يكن يتخيّل أن يطال أمّه مكروه.. عندها فقط أحسّ بمرارة الغربة والوحدة رغم وجود زوجته وابنته معه.. رغم وجود أسرته.. لا.. ليست أسرته.. أسرته تركها هناك ورحل.. أمّه هي أسرته.. تركها هناك تواجه المصاعب والأهوال لوحدها.. وصفاء.. عن أيّ صفاء تتحدّث يا رجل.. لقد طلّقتها منذ زمن.. أم أنّك نسيتَ؟ طلّقتها يوم قرّرت أن تزرع لكَ جذورا هنا ونسيتَ جذوركَ الحقيقيّة.. طلّقتها وطلّقت معها الوطن والأهل.. هل مازالت تذكرني يا ترى؟ أم أنّها نسيتني كما نسيتها؟ هل مازالت تعيش مع أمّي؟ أم أنّ أمّي الآن وحدها؟ زرعتُ هنا جذورا.. لكنّها لم

تكن قويّة.. كان من السّهل اجتثاثي من هنا في أيّة لحظة.. لكن ماذا عن جذوري هناك؟ هل باتت هشّة هي الأخرى؟ ماذا تنتظر؟ ماذا تأتمل بعد أن تركتَ هناك كلّ شيء وجئت تبحث هنا عن لا شيء؟ عندها أحس بالخوف والرّهبة وتذكّر كلام أمّه «أخاف أن تجد نفسك يوما كالغراب الّذي أراد أن يتعلّم مشية الطّاووس فلم يستطع ونسي مشيته» يومها لم يُعِرْ لكلامها اهتماما يُذْكَرُ وهاهو كلامها الآن حقيقة يعيشها ويحسّ ألمها ويذوق مرارتها.. هاهي الحقيقة تمْثل أمامه مجرّدة في وقت حرج.. في وقت لا يقدر فيه على السّفر إليهم ولا على إرسال أحد للاطمئنان عليهم.. جاشت بصدره كلّ هذه الأفكار لكنّه كتمها وراح إلى شغله لا يلوي على شيء..

وحينما عاد في وقت الغداء وجد الطّعام موضوعا على الطّاولة والجميع ينتظر وصول السّير فرانكو.. جلس عبد الكريم معهم فاستهلّت السّيّدة ليزا الحديث بأن قالت موجّهة الكلام إليه:

- هل رأيت ما حدث اليوم في بلدكم؟

- نعم..

- وهل اتّصلت بأهلكَ لتطمئنّ عليهم؟

فأجابها باقتضاب مرّة أخرى..

- كلاّ..

وعند هذه العبارة قطع السّير فرانكو الحديث قائلا في سخرية وهو يستعدّ للجلوس ويبسط المنديل على ركبتيه..

- لا تخشيْ شيئا يا ليزا.. لن يحصل شيء.. هم من فتح لنا الأبواب للدّخول كي نحرّرهم من الدّكتاتوريّة الّتي كانوا يعيشونها.. هل من المعقول أن يعضّوا اليد الّتي مدّت إليهم المساعدة؟ من شيم العرب الاعتراف بالجميل.. وجميلنا عليهم كبير جدّا.. ونستحقّ عليه الشّكر لا الحرب..

وما إن أتمّ كلامه متناولا الشّوكة والسّكين حتّى ألقى عبد الكريم بالمنديل على الطّاولة في حركة عصبيّة ثمّ انصرف..

وفيم كان السّير فرانكو دائم الجلوس أمام شاشة التّلفاز يشاهد نشرات الأخبار المتتالية المشيدة بأعمال أمريكا في العراق.. كان عبد الكريم يبتلع الأسى والغمّ.. ويترشّف النّدم قطرة بقطرة.. كانت مشاهد شهداء بغداد تملأ قلبه أسفا وحسرة.. وتحرق فؤاده لوعة وحزنا.. ذات الصّورة كانت تتكرّر كلّ يوم.. صور الدّماء والأشلاء.. حتّى الأحياء متشرّدون.. مشتّتون.. قريته هي الأخرى تعيش الدّمار.. وبعض شهدائها كان يعرفهم.. كانت الأيّام تمرّ والأسابيع تمضي وبمضيّ كلّ دقيقة كان الحقد يزداد اشتعالا في صدر عبد الكريم.. صار يكنّ لكلّ من حوله في ذلك البلد البغض والكراهيّة.. صار يرى في كلّ شخص هناك عدوّا وجب التّصدّي له بكلّ الأسلحة.. وممّا زاد الأمر سوءا سخرية ذلك العجوز الّذي يُشغّله ويُسْكنه قصره.. سخرية ما عاد عبد الكريم قادرا على تحمّلها البتّة.. سخرية تحوّلت إلى استفزاز بغيض صار عبد الكريم يمقته.. لكنّه كان يتحمّل كلّ شيء من أجل ابنته فقط.. وحتّام سيتحمّل؟ حتّام سيظلّ هكذا دائسا على كرامته وراضيا بالذّلّ وبإهانات ذلك التّافه؟.. ألم يحن بعدُ وقت الانفجار ؟

يومها كان عبد الكريم يستعدّ كعادته كلّ يوم أحد للذّهاب إلى النّادي.. وما إن مرّ بقرب الصّالون حتّى سمع صوت قهقهة عالية.. وما هي إلاّ هنيهة حتّى انبرى السّير فرانكو يناديه وهو لم يكفّ عن الضّحك بعدُ..

- هل ناديْتني؟

- أجل.. أنظر أمسكنا بالفريسة أخيرا..

- عمّ تتحدّث؟

- أنظر إلى شعره.. ولحيته.. يقال أنّهم وجدوه في قبو تحت الأرض كالـ..

فقاطعه عبد الكريم قائلا في اشمئزاز..

- أَمِنْ أجل هذا تنتابك نوبة هستيريّة من الضّحك؟ لأنّ بلادكَ حقّقت مرادها؟

عندها أجاب السّير فرانكو في فخر وترفّع واستفزاز..

- بلادي أنقذتكم من العبوديّة كما أنقذتكَ أنا من الجوع والفقر والحاجة..

ثمّ أردف في تحسّر..

- لكنّ بلادي حقّقت مرادها.. أمّا أنا فلم أحقّقه بعدُ..

فقطّب عبد الكريم حاجبيه معقّبا على ما بدر من السّير من كلام في البداية متصامّا عمّا قاله في الجملة الثّانية..

- أنقذتني من الجوع؟ وهل طلبتُ منكَ أنا ذلك؟ هل توسّلتُ إليكَ حتّى تمنحني نقودا أتعشّى بها أو مسكنا أعيش فيه؟ هل قدّمت لي صدقة تُذْكر؟ هل أعطيتني شيئا دون مقابل؟ كلّ شيء هنا بمقابل.. حتّى الهواء الّذي أتنفّسه بمقابل! أم لأنّك الثّريّ صاحب الأموال والأشغال تظنّ كلّ النّاس عبيدا لك ينتظرون إشارة من بنانكَ حتّى يتهافتوا عليكَ؟.. انهض من سباتكَ يا رجل.. كلّنا مخلوقات متساوية أمام الخالق.. وغطرستكَ هذه لن تعود عليكَ إلاّ بالوبال.. ستجد نفسكَ في النّهاية وحيدا.. حتّى ابنتكَ لن ترضى بالعيش معكَ..

- أُصمُتْ يا كلبُ.. من سوّاك رجلا وجعلكَ تعيش هذا الرّفاه أيّها التّافه؟ من شغّلكَ ومنحكَ السّكن والزّوجة؟.. أنا.. أجل.. أنا وليّ نعمتكَ يا جاحد..

- أنا فعلتُ كلّ هذا بجهدي.. شغلي كان بفضل كفاءتي وزوجتي أحبّتني قبل أن تحبّكَ وسكني لم أطلبه منكَ حتّى تمنحه لي.. أنت لستَ وليّ نعمتي في شيء.. وأنا ذو قيمة بكَ أو بدونكَ أمّا أنت فتخلّص من ثروتكَ وسترى بعد ذلكَ أين قيمتكَ..

- أُغرب عن وجهي أيّها العربيّ الأحمق..
- أنا عربيّ أجل.. أضفْ إلى ذلك أنّني عراقيّ.. أنا ابن أولئك النّاس الّذين يدافعون بكلّ جهدهم عن أرضهم وعِرضهم حتّى آخر نَفَسٍ في صدرهم وآخر قطرة في دمهم.. أنا ابن الرّافدين الّذين لن ينضبا من الماء ما دامت في الأرض جذور صامدة وقويّة وصابرة على البلاء.. أنا عربيّ ولي أصل ولي أعراق أمّا أنت فعُدْ إلى تاريخكَ وفتّش في ماضيكَ وفي أوراقكَ عن أصلكَ فلنْ تجد فيه غير تمثال الحرّيّة يرفع مشعل الأوهام أو سفينة كريستوف كولومب ترسو على أرض الأمجاد الضّائعة.. حتّى أمريكا نفسها لا أظنّ أنّك تنتمي إليها.. أبوك كان إيطاليّا..
- اخرس يا كلب..
- ولماذا أخرس؟ لولا استفزازكَ المستمرّ لي لما اضطررت لقول ما قلته.. لكنّ جبروتكَ طغى على كلّ شيء وقضى على كلّ أمل لي في أن أعيش معكَ بسلام.. قضى على طاعتي لكَ وثقتي بكَ وأماني معكَ وأملي فيكَ.. في أن تكون جدّا رائعا لماري.. وشوّه صورتكَ في ذهني وقلبي معا.. فاستحال الرّجل الطّيّب الكادح نموذجا للقسوة والطّغيان.. حاولتُ ألف مرّة أن أتعامل معكَ بأخلاق أرفع من أخلاقكَ الدّنيئة فلم أقدر.. حاولتُ تكذيب نفسي الّتي كانت تقول لي أنّك إنسان شرّير لكنّ الحقيقة كانت أوضح من أن يخفيها ضميري أو تسترها طيبة قلبي وتفكيري في كرامة زوجتي وابنتي.. خسارة.. خسارة أن تكون بهذه الثّروة وبهذه الطّباع..
كان وجه العجوز يتلوّن بعد سماعه لذلك الحديث.. كان يستشيط غضبا ولا يقدر في ذات الوقت على إسكات عبد الكريم الّذي كان يتكلّم بنبرة الواثق من نفسه.. بطريقة لم يعهدها رئيسه أبدا.. لم يكن يبدو على الشّابّ أنّه خائف من عقاب أو من تهديد ورغم ذلك لم يملك ذلك الرّجل إلاّ أن قال له في لهجة الآمر:

- أنتَ من الآن مرفوت من عملكَ.. بل ومن أمريكا كلّها..

- لا داعي لكلّ هذه المشقّة الّتي تتكبّدها.. أعطني فقط ثمن التّذكرة وأنا مستعدّ أن أرحل من هنا غدا..

وما إن نطق بهذه العبارة حتّى نطّت بذاكرته صور تعود إلى خمس سنوات خلت.. يومها كان مستعدّا للتّضحية بأيّ شيء في سبيل الحصول على ثمن التّذكرة الّتي ستدخله هذا البلد..

- وهل تعتقد أنّ الأمر بهذه البساطة؟

- ما الّذي تطلبه منّي وأنا سأنفّذ فورا..

أحسّ السّير فرانكو بأنّه بات في موضع قوّة فأخذ يملي شروطه..

- بقيّة ثمن الشّقّة والسّيّارة.. لا تنس أنّ معي وصول أمانة تزجّ بكَ في السّجن..

- لكنّني لا أملك مبلغا بهذه الضّخامة..

ثمّ أضاف ببرود وكأنّه يساومه..

- ثمّ إنّك لن تستفيد شيئا من زجّي في السّجن..ماذا ستقول لماري إن سألتك يوما عنّي؟ ستقول لها أنّي ميت؟ هذا لن ينفع.. ما رأيك لو تأخذ الشّقّة والسّيّارة وكلّ شيء وتدعنا نرحل من هنا بسلام؟

- حسنا.. فكرة لا بأس بها.. لكن لي شرط أخير..

* * *

أخذ عبد الكريم يجمع أدباشه القليلة.. كيف وافقتُ؟ أجل.. كيف وافقتُ؟ يومها ضحّيتُ بعائلتي.. بأمّي لآتي إلى هنا.. واليوم.. كان عليّ كذلك أن أضحّي للعودة إلى هناك.. إلى مسقط رأسي.. لو لم أفعل ذلك لَرَمَى بي ذلك الوغد في السّجن.. لَخَسِرتُ كلّ شيء.. ماضيّ وحاضري ومستقبلي.. ومن أدراك أنّك ستجد هناك شيئا؟ من أدراك أنّك ستجد مستقبلا ينتظرك فاتحا أحضانه؟ من أدراك أنّك لن تجد هناك

عتمة أكثر من هذه الّتي تعيشها هنا؟ من أدراك أنّك لن تجد هناك غربة أكبر من هذه الّتي تعانيها هنا؟ كيف غامرتَ وتركتَ حاضركَ هنا ولا أحد يضمن لكَ غدا أفضل بجانب أمّك إن وجدتها؟ عندما أذكر كلام ذلك العجوز المقيت أحسّ بالدّوار.. «.. أن تبقى إليزابيت وماري هنا..» كيف قبلتُ مجرّد التّفكير في الأمر؟ كان عليّ أن أرفض دون تفكير.. ماذا يظنّ الأحمق؟ هل هي صفقة؟ هل من الممكن لذلك الحقير أن يجعل من ابنته وحفيدته محلّ مساومة؟ وإن قبل هو الجبان.. كيف أقبل أنا؟ إليزابيت زوجتي وماري ابنتي.. كيف يعرض عليّ تركهما بجانبه مقابل رحيلي عن هنا؟ وكيف أقبل أنا هذا العرض القذر؟ كيف ندّت عن فمي تلك العبارة.. «أنا موافق..» ندّت عنّي عن مضض.. أجل.. حينما تذكّرت أنّ أمّي هناك بانتظاري.. قرّرت التّضحية بكلّ شيء لأجل رؤيتها.. ومن أدراك أنّها بانتظاركَ؟ هل من المعقول أن أفعل كلّ شيء وأجد نفسي في النّهاية أركض خلف خيط من الأوهام؟ وإن يكن.. بلدي هناك.. سأعود إلى بلدي..

أغلق الحقيبة وأمّ وجهه شطر بيت جاكو.. دقّ باب الغرفة وانتظر فترة ليست بقصيرة.. وعندما يئس من وجود أحد بالبيت همّ بالمغادرة وعندها فُتِح الباب وأطلّ رأس جاكو وهو يفرك عينيه.. وما إن ألقى نظرة على الطّارق حتّى فتح عينيه دهشة وقال مستغربا:

- عبد الكريم؟ خيرٌ.. ما سبب هذه الزّيارة المفاجئة؟

- هل أنستكَ المفاجأة إذن أن تقول صباح الخير؟

- أنا في غاية الأسف يا صديقي.. صباح الخير.. ولكن ليس من عادتكَ أبدا زيارتي..

- هل يمكنني الدّخول؟

- طبعا.. تفضّل.. عذرا.. ليس البيت من مقامكَ..

كان يقول هذا الكلام وهو يزيح بعض ما كان مُلقى على أرضيّة الغرفة من أوعية طعام وملابس.. ثمّ أضاف..

- من عادتي أن أرتّب البيت اليوم.. لكنّ الوقت ما يزال مبكّرا..
- واضح أنّني أيقظتك من نومكَ..
- لا عليكَ.. كان لابدّ لي من النّهوض حتّى أرتّب هذه الفوضى.. الغرفة على حالتها هذه طيلة الأسبوع.. أنا لا أجد الوقت الكافي للعناية بها..
كان جاكو يتحدّث خافض الرّأس.. لكنّه ما إن رفعه ونظر إلى عبد الكريم حتّى لاحظ أنّ الشّاب شارد الذّهن فتفطّن إلى أنّ حديثه ذاك لم يكن يعنيه ولا رغبة له في سماعه.. فاستدرك قائلا..
-لكن دعنا من هذا الحديث الآن.. هل تريد أن تشرب شايا أم قهوة أم..
- لا داعي لشيء أرجوكَ..
وعندها جلس جاكو وهو يقول..
- حقيبتكَ وزيارتكَ وهيئتكَ تدلّ على أنّ في الأمر سرّا..
- أجل.. قدّمت استقالتي وأنا عائد إلى بلدي..
- ولِمَ فعلت هذا؟
- لم أعد أطيق العمل معه.. بل لم أعد أطيق النّظر في وجهه.. لقد أذاقني الويلات السّبعة.. وآخرها يسخر منّي لأنّني عربيٌّ.. ويشمت أمامي بكلّ ما يحصل لأهلي هناك في العراق..
- أ لهذا تركته؟
- لا تظنَّ الأمر هيّنا يا جاكو.. إنّها كرامتي..
- حسنا.. لا بدّ أنّك متعب الآن.. ارتح قليلا حتّى أجهّز أنا فطور الصّباح ثمّ سنكمل حديثنا.. اتّفقنا؟
جلس عبد الكريم يتطلّع إلى الغرفة.. كانت ضيّقة وتحوي أبسط تجهيزات المعيشة.. فيها مطبخ صغير وحمّام أصغر.. فيها جهاز تلفاز وطاولة خشبيّة مستديرة الشّكل..

وفي ركن من أركانها وُضِع رفّ عَلَتْهُ بعض الكتب لِفولتير وبودلير وموليير.. ولم تمرّ بضع دقائق حتّى قدم جاكو وبيده طبق وُضِع عليه فطور الصّباح..

- لا تعجب كثيرا.. أنا مولع بالأدب الفرنسي.. عندما كنتُ صغيرا كانت تسكن بجوارنا امرأة في الأربعين من عمرها.. كانت فرنسيّة انتقلتْ مع زوجها للعيش في موريطانيا.. لم يكن لها أولاد فكانت دائما تعاملني كولدها.. علّمتني بعض أبجديّات اللّغة الفرنسيّة حتّى صرت أتقنها نوعا ما.. وعندما كبرتُ وأتيت إلى هنا.. وجدتُ في صديقي ميشال أحسن مشجّع لي.. فبتّ أُنْفِقُ جلّ مرتّبي في اقتناء الكتب الفرنسيّة الّتي صارت تملأ كلّ أوقات فراغي.. تصوّر.. لقد سهرتُ البارحة حتّى الثّانية صباحا لأتمّ قراءة الجزء الأخير من هذا الكتاب، إنّه بعنوان "الحياة" لـ"موباسان"..

- الحياة.. لا نحتاج في الحديث عنها إلى كتاب بهذا الحجم.. هي في كلمة.. كالشّمعة، إن أنت أشعلتها ذابت..

- ما هذه الفلسفة يا صديقي؟ لا تشغل بالك كثيرا ولا تنفق عمرك في التّفكير المضني..

- يا لك من إنسان طيّب يا جاكو..

- بالمناسبة.. أنا اسمي الحقيقي معاوية.. ينادونني بجاكو لأنّهم وجدوا الاسم الأوّل صعب النّطق عليهم..

- تبّا.. حتّى الاسم يريدون تجريدنا منه؟

- لا عليكَ.. إنّها الدّنيا.. القويّ فيها يسيطر على الضّعيف..

فتساءل عبد الكريم في شبه ثورة..

- لكن متى سنُزهِق هذا المبدأ؟ متى يقدر الضّعيف على العيش مع القويّ في نفس المستوى؟

- في الجنّة يا أخي.. اسمع.. كلّ ما تقوله شعارات يسلّي بها الإنسان نفسه مدّة من الزّمن يعيش فيها بالأوهام.. وعندما

تنكسر مبادئه على حافّة الواقع المرير يكتشف حماقة تفكيره وقِصر نظره وحبّه للخيال وللخداع..

- وهذه هي مشكلتي.. خُيّلَ لي في لحظة ما أنّني من الممكن أن أصير ندّا لفرانكو.. لكنّني وللأسف أفقتُ متأخّرا جدّا من غفوتي لأجد نفسي مجرّد قطعة من الشّطرنج يحرّكها ذلك البغيض على رقعة الحياة كما يحلو له وبالطّريقة الّتي تقتضيها لعبة العصر والزّمن.. وكما تعلم رَبِح كلّ الجولات.. حتّى زوجتي وابنتي سيحرمني منهما..

- وماذا فعلتَ معه حتّى يحصل لكَ كلّ هذا؟

- لقد بدأت المشاكل بيننا منذ تزوّجتُ ابنته.. إنّه إنسان معقّد.. كان يخيّل إليه أنّني خطفتها منه.. لكنّني تحمّلتُ تصرّفاته الصّبيانيّة معي وناضلتُ حتّى أعيش مع زوجتي في سلام.. وتفاقم الوضع أكثر بعد حادثة احتراق المطعمين بالمركز التّجاري.. آنذاك كاد يجنّ وكان بودّه لو أعلم السّلطات بوجودي هنا حتّى يطردوني من البلاد لكنّه تراجع تحت تأثير توسّلات ابنته له.. لكنّ صبري نفد منذ أشهر قليلة حينما وقع العراق تحت طائل الحرب.. أتتصوّر؟ كان يسخر منّي حينما يرى احتراق قلبي على أهلي هناك.. هل هذا بشر أم تمثال؟ هل يحمل في صدره قلبا أم حجر صوّان؟ كانت سخريته وشماتته القطرتين اللّتين أفاضتا كأس صبري عليه.. ولم أجد بدّا من مواجهته بكلام يليق بمقامه..

- وهل اكتفى بطردكَ؟

- بل سلبني الشّقّة والسّيّارة وكلّ شيء..

ثمّ طأطأ رأسه وقال مهموما..

- سأعود إلى بلدي بخفّي حُنيْن.. كما أتيتُ منذ خمس سنوات.. وهذا ما يحزنني..

عندها لاحظ جاكو الغمّ الّذي انتاب عبد الكريم فحاول تغيير الموضوع..

- اسمع.. كفانا حديثا عن الأحزان.. أنا ذاهب لاقتناء بعض الحاجيات من السّوق.. هل تريد الذّهاب معي أم تفضّل البقاء هنا لأخذ قسط من الرّاحة؟

- بل أفضّل الرّكون إلى الرّاحة حتّى تعود..

وغادر جاكو البيت تاركا عبد الكريم يفكّر ويفكّر وعشرات الأسئلة تجول في خاطره.. كيف سيعود إلى مسقط رأسه؟ كيف ستقابله أمّه؟ هل هي بخير؟ هل قدرت كعادتها على مجابهة المخاطر والأزمات أم أنّ سنّها لم يعدْ يسمح لها بتحمّل أعباء الحياة فضلا عن تحمّل مشاقّ الحرب والوحدة؟ بأيّ وجه سوف يقابل تلك المرأة المسكينة الّتي سهرت اللّيالي وباعت كلّ ما تملك وآخرها أعزّ قلادة على قلبها حتّى تمكّنه من تحقيق أحلامه؟ ماذا سيقول لمن وعدها بالعودة غانما من أرض الغربة؟ هل يغيب خمس سنوات حتّى يعود صفر اليدين؟ حافي القدمين؟

اغرورقت عيناه دموعا وأخذ يبكي بحزن ويأس.. سُدّت كلّ المنافذ في وجهه.. لم يجد لحيرته تلكَ مخرجا.. «لن تبيت اللّيلة هنا.. ابحث لكَ عن مكان.. ولتأت غدا في التّاسعة صباحا إلى المطعم.. سأتدبّر أمر رحيلكَ..» سيتدبّر أمر رحيلي.. كيف؟ كيف سيقنع إليزابيت وماري بتركي؟ ماذا سيقول لهما؟ أيّة كذبة سيختلق حتّى يشوّه صورتي في نظرهما؟ وإن رحلت.. بلادي في حالة حرب والخطر هناك جسيم خاصّة لمن هو غير متعوّد عليه والحياة هنا باتت مستحيلة.. لكنّني لا أستطيع في آن واحد ترك أمّي وحيدة هناك ولا ترك زوجتي وابنتي هنا والرّحيل عنهما..

استلقى على السّرير باحثا عن راحة ضائعة منذ خمس سنوات.. أغمض عينيه.. ولم يحسّ بشيء بعدها.. وما هي إلاّ لحظات حتّى شَعُر بصوت خافت يناديه.. «عبد الكريم.. عبد الكريم..»

فأفاق الشّابّ من نومه مذعورا وهو يقول:

- أمّي.. أمّي..
- أنا جاكو يا عبد الكريم.. لقد نمتَ طويلا يا رجل.. إنّها الثّالثة والنّصف بعد الظّهر..
- معكَ حقّ.. أنت لا تعلم أنّني لم أذق طعم النّوم منذ أسبوع..
- ولماذا؟
- بالي مشغول بأمّي.. إنّي خائف عليها كثيرا..
- ألم تجرّب الاتّصال بها أبدا؟
- بلى.. حاولت عدّة مرّات ولم أفلح.. أرسلت لها منذ شهر رسالة فلم تردّ عليّ.. هناك احتمالان فقط.. إمّا أن تكون غاضبة منّي أو أنّها رحلت عن الدّنيا بلا رجعة..
- وربّما تكون انتقلت للعيش في مكان آخر..
- لا أعتقد ذلك.. أمّي وفيّة لأبي.. لا يمكن أن تغادر ذلك البيت الّذي تركه لها.. إلاّ إذا كانت الحرب قد أوقعته..
- تفاءل يا أخي ولا تفكّر في البلاء الآن وأنت هنا.. كلّها أيّام وترحل إليها وتطمئنّ عليها..
- كيف ذلك وقد رأيتُ في نومي كابوسا مرعبا؟ رأيتُ أمّي ممسكة بيدها حدثا.. كانت تحتضنه بيدها وتودّع صديقي سعيدا بيدها الأخرى.. كانت مرتدية جلبابا أبيض.. وكان سعيد يمشي ويلتفت لها ويلوّح بيده حتّى وصل إلى غابة ملآنة أشواكا وأغصانا.. ثمّ فجأة.. سقط في جبّ كبير واختفى ولم تبق إلاّ رنّة ضحكته المعهودة وقطرات دموع أمّي تسيل من عينيها في صمت وصوت ذلك الطّفل الصّغير وهو يبكي بأسى وحزن شديدين.. وما هي إلاّ لحظات حتّى قدمت صفاء وحملت الطّفل بين ذراعيها وأخذت تربّت على ظهره بحنان حتّى سكت.. ثمّ أمسكت بيد أمّي وراحوا يقتفون أثر سعيد.. أنا خائف على أهلي كثيرا.. كثيرا يا جاكو..
- لا عليكَ يا عبد الكريم.. لا تبنِ مخاوفكَ على مجرّد كابوس رأيته في نومكَ.. بل توسّم خيرا في المستقبل..

ثمّ أضاف محاولا تسلية عبد الكريم..

- قُلْ لي.. ألست جائعا؟ إنّك لم تتناول شيئا منذ قدومك إلى بيتي..

وبينما كان جاكو يجهّز الطعام فتح عبد الكريم حقيبته وجذب منها شريطا.. وضعه في آلة التّسجيل وضغط على زرّ التّشغيل.. فانبعثت الأنغام عذبة.. وتقدّم جاكو مغادرا المطبخ وبيده الأطباق وتساءل:

- لِمنْ هذه الأغنية؟

- إنّها لمطرب عراقيّ معروف.. إنّه ناظم الغزالي.. كانت أمّي تحبّه كثيرا وتستمتع كثيرا بسماع ألحانه وأغانيه.. كانت تجلس على البساط فأجلب لها أنا الشّاي فأجدها تميل رأسها ذات اليمين وذات الشّمال وتترنّم بأنغام موسيقاه وتردّد معه بعض مقاطع أغانيه.. كانت تقول لي أنّ والدي كذلك كان يحبّ هذا الفنّان..

ثمّ تنهّد..

- آه يا أمّاه! كم نصحتني بألاّ أتركَكِ.. كم توسّلت إليّ بألاّ أغادر موطني وأهلي وعشيرتي.. كم قلتِ لي أنّ الّذين ينتظرونني وحوش في أثواب آدميّين.. كم نصحْتِنِي ولم أصغِ لنصيحتكِ.. كم رجوتني ولم أسمع رجاءك.. كم حدّثتني عن المصاعب الّتي ستعترض طريقي فلم أنصت لحديثكِ.. كم حذّرتني فلم أُبالِ بتحذيرك.. كلّ ما ربّيتني عليه من قيم وفضائل غرق في بحر حبّي للمال وطمعي في الثّروة.. كلّ ما تعلّمته منكِ من القناعة والرّضا عميَت عنه عيني بإشعاع وبريق المادّة والثّراء.. لمعان مزيّف.. قناع خدّاع يخفي وراءه الشّرّ والعناء.. رميتُ بكلّ دروسكَ عرض الحائط وغامرتُ بكلّ شيء في سبيل تحقيق أمانيّ الضّائعة.. ضحّيت بكلّ ما أملكُ من أجل طموح ضاع هباء.. بذلتُ كلّ نفيس.. حتّى حبّي لكِ.. دست على فؤادي وكبريائي وغادرتُ وطني وأغلى أُناس على قلبي حتّى أصل إلى المجد.. ويا ليتني وصلتُ..

عوض أن أربح شيئا خسرتُ أشياء كثيرة.. أصلي.. جذوري.. سعادتي.. عائلتي.. وطني.. وماذا بعد كلّ هذا؟ ماذا بقي لي أعيش من أجله في هذه الدّنيا؟

- لا تيأس يا عبد الكريم.. رحمة الله واسعة وشاملة لكلّ شيء.. ثبّت إيمانكَ وثقْ بأنّ الله لن يخذلكَ.. قُلْ إنّ الله أراد اختبار صبركَ وقوّة اعتقادكَ فيه..

- لكنّه حقّا امتحان صعب..

- أنت قادر على تجاوزه بعزيمتكَ وإصرارك.. أنا متأكّد من ذلك..

- أنا أحسدك على صبرك وتفاؤلك يا جاكو..

- قد سبق وقلتُ لكَ أنّني انسان محظوظ.. ليس لي عائلة ولا أهل يشتاقون لي أو أشتاق لهم.. أنا وحيد.. هل أُحْسدُ على وحدتي؟ أنا عندما أملّ أحادث نفسي.. هل تعرف ما معنى أُحادث نفسي؟ عندما أمكث يوم العطلة في هذه الغرفة أشارف على الجنون.. أنا لا أحادث أحدا.. لا أعرف أحدا ولا أحبّ أن أعرف أحدا.. أريد أن أبقى هكذا بعيدا عنهم وعن شرّهم ومكائدهم..

كان جاكو يتكلّم بنبرة فضحت شقاءً كبيرا أدرك عبد الكريم عمقه فقال:

- ولِمَ لمْ تحاول البحث عن مكان آخر تعمل فيه؟

- وما الفائدة في ذلك؟ مهما فعلت لن أجد أحسن من العمل مع السّير فرانكو..

فقال عبد الكريم مستنكرا..

- ألم ترَ ماذا فعل معي؟.. ألا تخشى أن يفعل معكَ نفس الشّيء؟

- أنا لا أقترب مثلكَ من حقول الألغام في حياة السّير.. أنا لا أملك مثل طموحك ولا مثل تحدّيكَ ولا مثل جرأتكَ.. أنا مقتنع بمصيري وراضٍ بحياتي هكذا..

- ليتني كنتُ مثلكَ.. لما انقلبت حياتي بهذا الشّكل..

- إحمد الله على أنّك سترحل من هذا البلد وستتخلّص قريبا من معاناتكَ وتعود أخيرا إلى عائلتكَ..

- لِمَ لا ترحل معي؟

- إلى بلدك؟ لا يمكن.. أنا مكبّل بقيود وأصفاد اسمها "فرانكو كازاني"..

وأشرقت شمس نهار جديد.. قام عبد الكريم في عجلة من أمره وغادر بيت جاكو متّجها نحو المطعم.. وما إن وصل حتّى وجد ماكس ينتظره في البهو واقفا ينظر إليه نظرة المحتقر المنتصر المسرور.. ألقى نظرة خاطفة على ساعته وقال ساخرا:

- جئت في الموعد تماما.. السّير فرانكو ينتظركَ في مكتبه.. أطرق الباب ثمّ ادخل إن سمح لكَ..

أدرك عبد الكريم أنّ ماكس كان يستفزّه فلم يُردْ مناقشته بل تفحّص وجهه اللّئيم مليّا ثمّ انصرف من أمامه دون أن ينبس ببنت شفة.. وقف أمام السّير فرانكو الجالس في ارتياح كبير على كرسيّ المكتب الّذي كان عبد الكريم جالسا عليه منذ يومين فقط.. لم يسلّما على بعضهما إذ أنّ السّير بدأ الحوار بقوله..

- الآن فقط تأكّدتُ أنّ ثقتي لا يستحقّها أحدٌ أبدا.. لذلك فقد قرّرتُ فصلكَ عن شغلكَ..

- الآن فقط؟.. كنتُ أظنّ أنّ ذلك حدث منذ الأمس..

- لا تقاطعني.. اليوم سيتمّ كلّ شيء بصفة رسميّة.. ستسلّمني كلّ ممتلكاتك، وتغرب عن وجهي..

- وهل تضمن ترحيلي إلى بلادي؟..

- أجل.. اضمن.. وهاك تذكرة الطّائرة إن أردتَ..

* * *

صعد على سلالم الطّائرة الرّاحلة إلى العراق.. تمّ كلّ شيء بسرعة البرق.. تمّت كلّ الإجراءات بسهولة ويُسْرٍ.. لم يتطلّب ذلك وقتا طويلا.. كلمة واحدة أتمّت الموضوع.. «أنا

موافق..» قالها للمرّة الثّانية.. لكنّه هذه المرّة لم يندم.. لم يستحقّ الأمر تفكيرا عميقا.. التّفكير في الذّهاب إلى العراق كان أعمق.. وحينما وجد التّذكرة بين يديه نسي كلّ شيء.. نسي نفسه.. التفت فلم يجد من يودّعه غير جاكو.. لوّح له بيده وأتمّ صعوده.. انتحى مكانا بعيدا عن النّافذة.. لم يكن يريد أن يرى شيئا في الخارج.. لم يعد يريد لشيء أن يربطه بذلك البلد الّذي لم يعرف فيه غير الطّعم المر وغير الحلاوة الكاذبة للأوهام والأحلام.. حتّى المناظر.. حتّى الصّورة لم يرد لها أن تبقى آخر تذكار راسخ في مخيّلته.. كان يريد نسيان كلّ شيء.. كان يريد أن يبدأ من جديد.. أن يلغي خمس سنوات من عمره ضاعت هباء.. حتّى زوجته الأمريكيّة الّتي وافق على تركها.. حتّى ابنته.. يجب أن يطويهما النّسيان.. يجب أن تصيرا ماضيا مرّ وفات ولم يبق له أثر في حياته القادمة.. هذه هي آخر توصية قدّمها له السّير فرانكو وقد لمع في عينيه بريق الظّفر.. لكن ماذا عن مستقبله؟ ماذا سيفعل بعد عودته؟ أمّه.. وصفاء الّتي طلّقها.. تُرى كيف عاشتا بعد رحيلي؟ وكيف سيستقبلانني؟ أمّي امرأة طيّبة وحنونة.. أطيب منّي.. أنا الّذي لم أترك لها أملا ولا رجاء يجعلها تحنّ عليّ أو تشفق.. من أجل ماذا ستسامحني وأنا الّذي لم أكلّف نفسي حتّى عناء الاطمئنان عليها؟ انشغلت بأعمالي وأموالي.. شُغِلتُ عنها بصهري العزيز الّذي لم يأخذ بعين الاعتبار نضالي واجتهادي وطاعتي وألقى بي عند أوّل فرصة أُتِيحت له.. لم يُراعِ زواجي من ابنته ولا أبوّتي لحفيدته وتخلّص منّي بلا مبالاة.. فلم أجِد في نجدتي إلاّ وطني وأمّي اللّذين تخلّيتُ عنهما وقابلتُ عطفهما عليّ في الماضي بالجحود والنّكران.. الآن لا أجد ملاذا لي من غربتي سوى حضنهما الدّافئ الّذي لا يُشْترى ولو بمال الدّنيا كلّه..

هذا ما كان عبد الكريم يفكّر فيه طوال رحلة عودته إلى مسقط رأسه.. لم يقدر حتّى على نيل قسط من الرّاحة.. لم

يستطع أن يرتاح قبل أن يقابل أهله.. حتّى لامست عجلات الطّائرة أرض المطار.. ونزل الرّكّاب.. كان عبد الكريم يتحرّك في تثاقل وكأنّه كان متردّدا في النّزول إلى أرض وطنه.. لم يكن متردّدا بقدر ما كان خائفا.. كان الرّعب يجتاح صدره ويغزو قلبه.. كان خائفا لئلاّ يجد أمّه أو ألاّ تقبله أو أيّ شيء من هذا القبيل.. لم تكن مدّة غيابه قصيرة لذلك كان يفترض كلّ الإحتمالات خاصّة بعد كلّ ما رأى في الغربة من نقمة وحقد..

استقلّ الحافلة الّتي ستوصله إلى قريته جنوب بغداد.. وطوال فترة جلوسه كان يطلّ من النّافذة على ما آلت إليه بلاده بعد الخراب الّذي طالها ولا يزال من أيدي أولئك الوحوش الّذين كان يسكن معهم ويقاسمهم أكلهم.. أبنية سوداء.. منازل مهدّمة.. شوارع لا ملامح لها ولا أمان فيها.. الكلّ خائف.. الكلّ يمشي في حذر ويلتفت في سيره ألف مرّة.. وكأنّه ينتظر حتفه.. حتّى الأطفال لم يأمنوا شرّ أولئك الجنود.. كانوا يسيرون فرادى وجماعات وقلوبهم تكاد تخرج من صدورهم هلعا.. وجوههم الصّغيرة ممتقعة.. وأياديهم ترتجف رغم أنّها كانت ملتحمة بعضها ببعض..

أخذ ينظر لجلد ذلك الشّعب ونضاله وصموده في وجه العدوان.. أخذ ينظر بفخر وحزن في آن واحد.. فخر ببني وطنه الشّجعان والصّامدين.. وحزن عليهم وخوف من الخطر الّذي يحدق بحياتهم.. كان جالسا في الحافلة في أمان ورغم ذلك يكاد قلبه يمزّق صدره وجلا.. أمّا هم فيسيرون في الشّوارع ورشّاشات ومدافع الأعداء موجّهة إلى صدورهم ورؤوسهم ورغم ذلك فالحياة بالنّسبة لهم متواصلة ولا يوقفها شيء حتّى الموت.. بل على العكس.. في الموت بالنّسبة لهم حياة جديدة لأنّه سيكون موتا في سبيل الوطن.. أحسّ وهو جالس في الحافلة بمدى جبنه ووضاعته.. أحسّ بنفسه وكأنّه يحتمي -وهو الرّجل- خلف ظهر طفل صغير مستعدّ للتّعرّض

كلّ صباح إلى المخاطر حتّى يصل إلى مدرسته.. أمّا هو فرحل عن بلاده.. تخلّى عن بلاده ليمنح جهده للأعداء الّذين سلبوه كلّ شيء وأعادوه إلى وطنه الّذي وجد عشرات المناضلين ليحلّوا محلّ عبد الكريم وأمثاله من النّاكرين للجميل..

أحسّ نفسه غريبا تائها في أرض لم تعد أرضه بعد أن أنكرها سابقا.. في أرض أولئك الشّجعان الّذين يحافظون عليها أكثر من حفاظهم على أنفسهم.. المستعدّون للتّضحية بأرواحهم من أجل عزّتها.. أحسّ نفسه ذليلا.. عاد بكلّ حقارة لمكان نفره قبل ذلك حتّى يطلب العفو والصّفح بعد أن أخطأ في حقّه كثيرا.. لكنّ المهمّ الآن أن تصفح عنه أمّه..

ووصلت الحافلة ونزل عبد الكريم وأنزل حقيبته فبلغت أنفه رائحة الشّاي منبعثة من بيوت القرية فأنس للمكان وانشرح قلبه وأحسّ وكأنّه لم يغب عن موطنه إلاّ مدّة يومين.. لكنّه حينما اقترب من الحيّ رأى ما روّعه.. كانت بعض البيوت قد استحالت دمارا وأنقاضا.. كان يعرف بعض سكّانها بل كانوا أصدقاءه.. وقف على أطلالها مفجوعا ومتسائلا عن مصير أهاليها.. هذا بيت خالد.. وهذا بيت عبد الله.. أين هما يا ترى؟ هل رحلا؟ وبينما هو واقف هكذا إذ به يرى مجموعة من الأطفال يلعبون قريبا منه فقرّر أن يبحث عندهم عن جواب لما يحيّره..

اقترب من طفل كان يرتدي جلبابا ابيض.. كانت عيناه بلون الزّيتون الأخضر وشعره كسواد اللّيل.. كان يبدو عليه الذّكاء والفطنة.. ناداه عبد الكريم دون تردّد وسأله وهو يربّت على رأسه بحنان..

- ما اسمك يا صغيري؟

- اسمي بشّار..

- هل تعرف أصحاب هذا البيت؟

قال هذا مشيرا إلى بيت صديقه خالد فأجابه الفتى ببراءة..

- كلاّ.. لكنّني أعرف أصحاب ذلك البيت.. إنّه بيت عمّي عبد الله..

- وأين هو الآن؟

- تزوّج ورحل مع زوجته.. لكنّني لا أعرف إلى أين..

- حسنا.. وأنت؟ أين بيتكَ؟..

- بيتي؟ إنّه هناك..

وأشار ببنانه إلى بيت عائشة.. فقطّب عبد الكريم حاجبيه وفتح عينيه عن آخرهما وصاح فيه متلهّفا..

- تقول أنّ ذلك البيت ذا الباب الخشبيّ الأزرق والشّبّاك الحديديّ هو بيتكَ؟ هل أنت متأكّد؟

فأجاب الفتى مندهشا..

- أجل..

- ما اسم أمّك؟

- صفاء..

- وأبيكَ؟

- سعيد..

- ماذا تقول؟ صفاء تزوّجت سعيدا؟

ثمّ عاد فسأل الفتى مستفسرا..

- وأين والدكَ الآن؟

- لا أعلم.. قالت لي أمّي أنّه رحل..

ولم يتمّ الصّبيّ كلامه حتّى برزت من الباب امرأة ترتدي لحافا أسود يغطّيها من رأسها حتّى قدميها.. وقد ظهر شعرها الأبيض رغما عنها من تحت ذلك اللّحاف.. كانت تسير ببطء.. وقفت عند عتبة الباب وصاحت منادية بصوت طمست السّنون معالمه..

- بشّار.. يا بشّار..

فالتفت الطّفل وأجاب:

- نعم يا جدّتي..
- هيّا.. كفاكَ لعبا وتعال لتناول طعام الغداء..
- حسنا.. أنا قادم..

وبعد أن قالت هذه الكلمات همّت بالعودة إلى داخل البيت دون أن تبالي بالواقف مع حفيدها.. لكنّ عبد الكريم تفرّس في وجهها قليلا ثمّ أخذ يصيح..

- انتظري.. أرجوك انتظري..

وقفت المرأة.. وضعت يدها على جبينها حتّى تحجب عن عينيها أشعّة الشّمس لتتمكّن من معرفة هويّة القادم.. لم يكن الصّوت أو الهيئة غريبين عنها.. إنّه عبد الكريم.. أجل.. إنّه ولدي.. إنّه الأمنية الّتي لطالما انتظرت تحقّقها.. إنّه فلذة كبدي.. كم ظننت عودتك أملا كاذبا.. وهاهي تتجلّى لي اليوم حقيقة صادقة.. خمس سنوات من الإنتظار.. خمس سنوات من الصّبر وها قد أتى الفرج اليوم.. انتابت الأمّ المسكينة للوهلة الأولى فرحة عارمة ودّت معها لو قفزت في حضن ابنها العائد لكنّها فجأة تذكّرت ما عانته طوال فترة غيابه.. تذكّرت النّسيان والأحزان.. تذكّرت كلّ شيء من شأنه أن يجعلها تأبى حتّى النّظر في وجهه.. تملّكها حزن عميق بعد الفرحة الّتي شعرت بها في البداية.. رفعت رأسها الّذي أثقله الهمّ فوجدت عبد الكريم واقفا أمامها.. لم يتردّد الفتى لحظة واحدة في الإرتماء في حضنها باكيا وهو يقول وفي جسمه رعدة:

- أنا عبد الكريم يا أمّاه.. أنا ابنكِ..

في حين ظلّت هي متصلّبة الجسد.. لم تحتضنه ولم تبال ببكائه بل قالت في جمود وحزم..

- كان لي ابنان.. أحدهما مات في الحرب منذ ثلاث عشرة سنة والثّاني في بلاد الهنود منذ خمس سنوات..

فرفع عبد الكريم عينين حمراوين وقال في خوف:

- لكنّي لم أمت يا أمّاه.. أنا أمامك حيّ أرزق..

فأجابته وقد أشاحت بوجهها عنه..

- أنت في عداد الأموات بالنّسبة إليّ منذ أن نسيت أنّ لكَ أمّا وعائلة هنا.. وكما نسيتنا نسيناك..

فقال في استجداء:

- إعتبريني ولدتُ من جديد.. سامحيني..

- وتقولها بكلّ سهولة ويسر؟ خمس سنوات بحالها مضت.. بخضرتها وجفافها.. وأفراحها وأحزانها.. بسلامها وحروبها ودمارها..

وضغطت على هذه العبارات بأسنانها وكأنّها تطحنها بين أضراسها نقمة فانحدرت على خدّها عبرة رغما عنها بدّدت الجمود والصّلابة الّتي حاولت بكلّ جهدها إضفاءها على الجوّ..

ثمّ أردفت..

- خمس سنوات لم نسمع صوتك إلاّ بضع ثوان لا تذكر.. بضع ثوان كنّا في غنى عنها.. خمس سنوات من الغياب والفراق والعذاب لن تقدر على محوها كلمة "سامحيني" تنطلق من بين شفتيك ولا يحسّ بها قلبك..

- كلاّ.. كلاّ يا أمّاه.. الآن فقط عرف قلبي معنى للنّدم.. لعبت بي الأقدار هناك وعانيتُ الأمرّين ولم أقدر على الصّمود أكثر..

- عد إذن من حيث أتيت.. لعبة الأقدار هنا أصعب ولن تقدر عليها هي الأخرى.. أنت بالنّسبة لنا شهيد الطّموح.. فلا تشوّه هذه الصّورة الّتي رسمناها لكَ في مخيّلتنا..

- معكِ حقّ في كلّ ما تقولينه.. لن أعاتبكِ ولن ألومكِ.. أنا أستحقّ أكثر من هذا لكن مهما بلغت بكِ القسوة فهي في النّهاية تعبيركِ الخاصّ عن حنانكِ.. وقلب الأمّ مهما تحجّر فهو لن يقسو أبدا على الابن..

- لا فائدة ممّا تقوله.. لا رجاء يشفع لكَ عندي..

عندها نظر إليها عبد الكريم نظرة حملت في باطنها العديد من المعاني.. نظرة حسرة وندم وضياع وعذاب لا

ينتهي.. نظرة من طلب النّجدة فلم يجدها.. نظرة من بذل كلّ ما في وسعه للتّعبير عن توبته لكنّه لم يفلح.. ثمّ خفض رأسه وكأنّه يقول لها «أهذا آخر كلام لك؟».. ثمّ استدار وهمّ بالذّهاب لا يدري إلى أين.. عندها فقط أحسّ حقيقة بأنّه تائه.. يتيم.. لا سقف يظلّه ولا أرض يفترشها.. أحسّ بالخوف والرّهبة والغربة.. أجل.. أحسّ نفسه غريبا.. لم يعد يعرف أحدا.. لم يعد يعرف المكان الّذي تربّى فيه عقدين من الزّمن.. طُمست ملامح كلّ شيء.. وأطفأت ردّة فعل أمّه شعلة الأمل الّتي كان يسير على ضوئها.. أحسّ بظلمة تحيط به من كلّ الجهات.. أحسّ بأنّه سيسقط مغشيّا عليه.. لم يكن يتوقّع ما قالته له أمّه.. أجل.. كان يتوقّع عتابها ولومها لكنّه لم يضع في تقديره إمكانيّة أن تتركه ضائعا هكذا في مسارب الحياة.. كان يتوقّع أن تغفر له ذنبه.. أن تفتح له حضنها وتضمّه.. لكنّه لم يكن يعلم أيضا أنّ أمّه بعد تلك النّظرة الّتي طالعها بها أدركت صعوبة الموقف فلم تقدر على إمساك دموعها الّتي أخذت تنحدر على خدّيها.. لم تقدر على طرد ابنها بلسانها بعد أن عاد إليها أخيرا يطلب منها العفو والصّفح.. لم تقدر على إقفال آخر أبواب الحياة في وجهه.. لم تكنْ قادرة رغم قوّتها وبسالتها على القيام بهذا الدّور.. لم تستطع ترك ابنها لصروف الدّهر ونوائبه خاصّة في تلك الفترة الصّعبة الّتي يحتاج فيها كلّ إنسان لمن يؤنس وحدته ويحميه أحيانا.. بل إنّها في لحظة ما أحسّت أنّ ابنها إن غاب عن ناظرها هذه المرّة فإنّه لن يعود إليها أبدا.. ربّما وجد في استقباله رّشاشات الأعداء ودبّاباتهم.. عندها فكّرت في الموت.. في بشاعته.. كيف قدرت منذ قليل على أن تقول له أنّه بالنّسبة إليها بات في عداد الأموات؟ هل تعرفين يا عائشة معنى كلمة "في عداد الأموات"؟ هذا بدل أن تحمدي الله على عودة ابنك إليك؟ ما رأيك لو صار الآن بسببك أنتِ في عداد الأموات حقّا؟ يا إلهي.. يا إلهي.. إنتابتها رعدة شديدة وصرخت دون أن تشعر

بأعلى صوتها.. «عبد الكريم! عبد الكريم!» وما إن سمع هو صراخها حتّى عاد إليها راكضا وارتمى في حضنها فأجهشت ببكاء متواصل لم تستطع الإمساك عنه.. وقبل أن يدخلا إلى البيت ألقت عائشة نظرة إلى الخارج ثمّ عادت تنادي:

- بشّار.. هيّا ادخل يا بشّار..

وعندها قال لها عبد الكريم بنبرة من تذكّر شيئا ودّ لو قاله منذ قليل..

- بالمناسبة.. ماذا يفعل ابن صفاء هنا في غياب والده؟..

فنظرت إليه أمّه نظرة ذات معنى ثمّ قالت:

- والده؟.. وهل عرفتَ من هو والده؟

- قد قال لي أنّه ابن سعيد..

فابتسمت الجدّة آنذاك ابتسامة حزن وأسى ثمّ تنهّدت قائلة في أسف وحسرة شديديْن وعيناها متسمّرتان بباب بيت عائلة سعيد المقفل في آخر الحيّ..

- سعيد؟ كان أروع شابّ رأيته في حياتي.. عاش معنا طوال أربع سنوات ونصف.. بمثابة أخٍ لصفاء وولدٍ لي وأبٍ حنون لبشّار.. سدّ الفراغ الّذي تركه رحيلكَ.. قام بكلّ واجباته تجاهنا.. ثمّ رحل..

- هل تقصدين أنّ بشّار ليس ابن سعيد؟

- بل ابنكَ أنت يا عبد الكريم..

- ابني؟ ابني؟ لكن.. كيف؟

- بعد سفركَ بحوالي شهرين اكتشفنا حمل صفاء فحاولنا إعلامكَ بالأمر فلم نقدر.. حتّى تلك المكالمة الهاتفيّة.. انقطع فيها الخطّ قبل أن أجد الفرصة لإبلاغكَ..

عندها تذكّر ما قاله لجاكو يومها «أحسست أنّها أرادت أن تقول لي شيئا مهمّا قبل أن ينقطع الخطّ..».. يومها صدق إحساسي.. ليتني عاودت الإتّصال.. لربّما علمت بالخبر ولربّما عدت.. ولربّما.. لا فائدة الآن تُرجى من هذا الحديث..

ثمّ التفت إلى أمّه وعاد يسألها في نبرة مزجت الفرح والحيرة واللّهفة..

- وسعيد.. أين هو سعيد؟ أريد أن أشكره على المعروف الّذي أسداه لي طيلة فترة غيابي.. قُلتِ لي رحل؟ إلى أين؟

فردّت الأمّ وهي تمسح دمعة نزلت على خدّها..

- إلى الجنّة..

- ماذا؟ ماذا تقصدين؟ مات؟ مات؟

- استشهد منذ.. نصف سنة.. في بداية الحرب..

عندها رفع عبد الكريم عينيه إلى السّماء.. رفع عينين مغرورقتين بالدّموع وقال في يأس..

- الحرب.. الحرب.. أخذوا منّي كلّ شيء.. سلبوني كلّ شيء.. زوجتي.. ابنتي.. والآن أعزّ أصدقائي.. سعيد.. سعيد.. أعزّ أصدقائي.. قتلوه.. قتلوه.. أجل قتلوه.. لن أتركهم.. لن أتركهم ينجون بأفعالهم تلكَ.. سأقف لهم بالمرصاد.. سأقف لهم.. سأنتقم لكَ يا سعيد.. سأنتقم لكَ..

وعندها انطلق من داخل البيت صوت أغنية.. ربّما كان بشّار قد ضغط على زرّ آلة التّسجيل دون أن يشعر..

«أجيال ورا أجيال ح تعيش على حلمنا
واللّي نقولو اليوم محسوب على عمرنا»